المجمع 17 (2022/1443)، 247-288

التّكثيف الإقناعي في وصيّة لسان الدين بن الخطيب

صفاء حرب[1]

Persuasive Intensification in Lisān al-Dīn ibn al-Khaṭīb's Will

Safaa Harb

Abstract:

This research examines the concept of persuasive intensification in Lisān al-Dīn ibn al-Khaṭīb's will to his children by looking into the persuasive mechanisms and strategies that proliferated on the surface of the will's structure. These persuasive mechanisms and strategies form the basis of the aesthetic technique that al-Khaṭīb adopted throughout his will, further creating a vertically-deepened text which comprises his internal secrets, manifestations of his historical and psychological status, and the conditions of his will's recipients. Through this, al-Khaṭīb was able to influence his will's recipients and entice them according to the goals and objectives he proposed in his will. Additionally, al-Khaṭīb used a brilliant selection of expressions and types of rhetoric, including figurative speech, allegory, metaphor, and metonymy, to demonstrate his skills in semantics and strengthen his esteemed status as well as that of his recipients. al-Khaṭīb also derived evidentiary power from incorporating modular semantic evidence as well as supportive sayings and syllogism to build up his persuasive text and induce an effect that is carefully positioned through the sentences and structures of his pragmatic commandments. Therefore, al-Khaṭīb's will highlights his personality as a preacher, father, leader, and guide who can persuade others using an elegant literary style that displays his immense knowledge in aesthetics, literature, and politics.

[1] مدرّسة لغة عربية تعليم ثانوي وأساسي عالي، إربد - الأردن.

الملخّص:

يأتي هذا البحث على مفهوم التّكثيفات الإقناعيّة في وصيّة (لسان الدين بن الخطيب) إلى أولاده، من خلال الآليات والاستراتيجيات الإقناعيّة التي تكوثرت دلالاتها وتمظهرت على البنية السطحيّة؛ لتنسج التقنيّة الفنيّة التي اعتمدها الخطيب في نصّه المتعمّق عموديّا مع مكنوناته الداخليّة وتجليات مقامه التاريخي والنفسي وأحوال متلقيه؛ ليؤثر فهم ويستميلهم إلى مراميه ومقاصده في الوصيّة. من حيث انتقاؤه ألفاظها ببراعة، واستخدامه صنوف البلاغة: البديعيات بأشكالها، والبيانيّات من مجاز واستعارة وكناية، وبراعته في تأطير علم المعاني، وتقويّة سلطة المقام في أحوال المخاطَب والمتكلِّم على حدٍّ سواء. كما استمدّ من الأدلة القالبيّة القوّة البرهانيّة فيما عرَضَ من أقيسةٍ ومقولاتٍ لتُدعِّمها وتؤازرها، وتعينه على حمل الطاقة الإقناعيّة والتأثيريّة المبثوثة بعناية في بناء جمل الوصيّة وتراكيبها المُتعالِقة تداوليًّا من مُستهلِها إلى مُنتهاها؛ فبرزت بذلك شخصيّة الخطيب والأب والقائد والمرشد، وفي النهاية، المقنع بأسلوبه الرائق الذي يتقطّر غزارة معرفيّة في فنون الأدب وميدان السياسة وأفنانها وشجونها.

المقدّمة:

ارتأيتُ حينما اخترتُ موضوع بحثي أنْ أحصد الملامح والأساليب الإقناعيّة التي انتهجها خطيبنا في الوصيّة دون الخطابة؛ ذلك لمعرفتي الضمنيّة بإقناعيّات فن الخطابة، واعتماد الخطباء عامّة على الأدلّة، والحجج والبراهين، والاقتباسات الإحاليّة، والأساليب الإنشائيّة المتنوعة في فرض العاطفة، واقتيادها إلى العقول قبل القلوب. فرغبتُ في أن أستقصيَ الآليات الإقناعيّة في وصيته لأبنائه، ودرجة تأثيرها دلاليا في تحليل البنية السطحيّة وصولا إلى العميقة.

يُقسم البحث قسمين: القسم النظريّ:

أ- تعريف التّكثيف: لغة واصطلاحا
ب- تعريف الإقناع: لغة واصطلاحا
ج- توضيح التّكثيف الإقناعي
د- مبادئ الإقناع
هـ- عناصر الإقناع
و- آليات الإقناع
ز- بنية الجملة اللغويّة المقنعة

القسم التطبيقيّ على الوصيّة الأنموذج:

أ- نص الوصيّة
ب - ترجمة الخطيب لسان الدين
ج- باعث الوصيّة
د- البناء الخارجي للنص
هـ- موضوعات الوصيّة
و- الإفرازات التأثيريّة التداوليّة
ز- سلطة المقام على النص
ح- التّكثيف الإقناعي في بناء الجمل
ط- الإقناع بالأدلة
ي- الأقيسة المنطقيّة
ك- الإقناعات البلاغيّة:
1- التكرار
2- أسلوب التفصيل بعد الإجمال
3- المجاز الإقناعيّ
4- الإقناعات البديعيّة

أ) **مفهوم التّكثيف**

في اللغة:

قال ابن فارس: "الكاف والثاء والفاء أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تراكب شيء على شيء وتجمّع، يقال: هذا شيء كثيف، وسحاب كثيف، وشجر كثيف". (مادة كثف 5: 161). وفي اللسان، كثف: الكثرة والالتفاف، كثّفه: كثّره وغلّظه" (مادة كثف 9: 296).

التّكثيف في الاصطلاح:

يعرض لنا فرج عبد القادر أن (التّكثيف) مصطلح نفسيّ استخدمه فرويد والمحلّلون النفسيّون للدلالة على عمليّة أساسيّة من عمليات إخراج الحلم، وتكوين الأعراض من الأمراض النفسيّة، علاوة على العمليات الأخرى التي تشترك في تسبّب التشويه: كالنّقل والتصوير البصريّ والرمزيّة في الحلم (143). ثم اُسْتُثْمِرَ هذا المصطلح في فن القصة القصيرة ليكوّن لها خصيصتها إلى جانب الوحدة والدراما؛ فالتّكثيف من وجهة نظر الكاتب (فؤاد قنديل) هو التركيز الشديد في العناصر إلى الدرجة التي تفضل بها على الرواية الملآى بالشّخصّيات والأحداث والصراع، لتحقيق أعلى قدر من النّجاح (58).

ويتبيّن مما سبق أن **التّكثيف** المعنيّ في البحث: هو كثرة الظواهر اللغويّة واختزالها، واكتناز الشواهد والدلالات في نصٍّ معينٍ تبعًا لحالةٍ نفسيّةٍ تعتري صاحبها.

ب) الإقناع لغة:

من مادة (قنع): "العزُّ في القناعة؛ والذلُّ في القنوع وهو السؤال، فلانٌ قنع بالمعيشةِ فهو قنوعٌ وقنيع وقانع، وأنشد الكسائي:

فإن ملكتْ كفّاك قوطًا فكُنْ بهِ قنيعًا فإن المتّقي الله قانعٌ

وقنع بالشيء واقتنع وتقنّع، وأقنعك الله بما أعطاك، وفلانٌ حريصٌ ما يقنعه شيءٌ. قنع إليه: سأله وهو من قنعتِ الماشية للمرتع: أي مالت إليه وأقنعها الراعي إليه، لأن القانع يميل إلى الناس، كما قيل المسكين لسكونه إليهم، وأقنع الرجل يديه في القنوت، إذا استرحم ربه، وقيل: الإقناع من الأضداد، يكون رفعًا وخفضًا، مُقنعي رؤوسهم: رافعيها. وفلانٌ لنا مُقنَع: رضًا يُقنِع بقوله وقضائه؛ ومنه جوابٌ مُقنِعٌ لسؤالي فلانًا عن كذا فلم يأتِ بمقنِع" (الزمخشري 104:2).

أما اصطلاحًا: فيُعرّف الدكتور إيهاب كمال (الإقناع) "بأنّه الجهدُ المنظم المدروس الذي يَستخدِم وسائلَ مختلفة للتّأثير على آراء الآخرين وأفكارهم، بحيث يجعلهم يَقبَلون وجهةَ نظرٍ، ويوافقون عليها في موضوعٍ معيّن، وذلك من خلال المعرفة النفسيّة والاجتماعيّة لذاك الجمهور المُستَهدَف" (18)، وهو عند غيره: "عمليات فكريّة وشكليّة يحاول فيها أحد الطرفين التأثير على الآخر، وإخضاعه لفكر أو رأي من خلال عرض الحقائق بأدلة مقبولة وواضحة، باستخدام الألفاظ أو الإشارات أو كليهما" (قوة الإقناع: 173).

فمصطلح الإقناع في هذا البحث يتمثلُ في قدرة التّأثير على العقل والفكر والوجدان؛ بهدف استمالة الفرد أو الجماعة إلى جهة يبتغيها المُقنِع، بإجادة مهارات الاتصال الفعّال وبحسن تصرفه في اللغة؛ فيطوّعها لغايته المنشودة بأساليب متنوعة، تكتنفها العديد من الإيحاءات والرمزيات، مثل: الخداع، والإغراء، والتحذير، والتنفير، والترهيب أو الترغيب.

ج) أمّا التّكثيف الإقناعي في "وصيّة لسان الدين بن الخطيب": فهو مُصطلَح يُطلَق على اكتناز الآليات الإقناعيّة، وحشدِها وتضافرها في البِنية النصيّة بعناصرها اللغويّة جميعها، لتؤلِّف منها كائنا مُؤثِّرا في الوجدان والعقل على حدٍّ سواء، هدفه المنشود هو الوصول بالمتلقي إلى الرضا والقَبول برأي المقنِع، وكأنهما عمليّة "غسيل المخ" بمعناها المعاصر.

د) مبادئ الإقناع:

لما كان الإقناع يقوم على الاتصال الهادف، ومخاطبة العقول في محاولة إقناعها بفائدة مضمون الرسالة، وبالنتيجة كسب التأييد والتأثير، يقودنا هذا إلى صياغة مبادئ الإقناع الفعّال الذي يستهدي به المقنعون في مجالات تواصلهم لإقناع جماهيرهم بمختلف صنوفهم، وهي عند (كمال)على النحو الآتي:

1. "مبدأ المعرفة: أي الجماهير، تأثير تطبيق على مصالحها.
2. مبدأ الحركة: حيثُ إنّ قبول الاقتراح مرهونٌ بمعرفة الجماهير لكيفيّة تطبيقه.
3. مبدأ الثقة: أي أنْ يصدر الاقتراح عن شخص أو منظمة ذات سمعة طيبة ومكانة مرموقة.
4. مبدأ الوضوح: أن يُصاغ الاقتراح بوضوح دون غموض" (كمال: 18).

هـ) عناصر الإقناع:

تتنامى ضرورة الإقناع في حياتنا مع تطور العصر وتقدّم المجتمعات؛ فمجتمع لا يَملِكُ المعرفةَ الكافيةَ ليُقنع بها أفرادَه أو خصومَه ليس جديرًا بأن يُسمّى به، فلا يقتصر الإقناع فقط على النواحي الدينيّة، بل يتعداه إلى الوسائل الحضاريّة المتقدمة من صناعيّة، وزراعيّة، وتعليميّة، ومهنيّة، وتكنولوجيّة. ولأن "التأثر والتأثير الجماعي يشكّل نوعًا من الإقناع ويؤدي إلى التقليد"(نفسه: 18)، يَعمَد المقنِعُ إلى رسم خطّة ذهنيّة مُقولَبة مُتناسبةٍ ومُعطيات الظّرف الزّماني والمكاني وحاجات الأفراد؛ فتجِدُ الفكرة والرسالة طريقها إلى الوجدان قبل العقل، وذلك عن طريق أركان الإقناع الأرسطيّة الثلاثة المتمثلة بـ:

1) "اللوغوس: Logos: أي القول بما هو فِكر.

2) الأخلاق: Ethos: أخلاق القائل.

3) الانفعال: Pathos: انفعال المقول له" (قادا: 64).

أما عند بعض الخبراء المُحدَثين تتمثل بـ:

1. **(المصدر)** ويجب أن تتوافر فيه صفات، منها:

أ- "الثقة: ويحصل عليها من تأريخ المصدر، إضافة إلى مدى اهتمامه بمصالح الآخرين.

ب- المصداقيّة: في الوعود والأخبار والتقييم.

ج- القدرة على استخدام عدة أساليب للإقناع: ترهيبا وترغيبا، منطقيا وعاطفيا...

د- المستوى العلمي والثقافي والمعرفي، والالتزام بالمبادئ والقناعات التي يريد إقناع الآخرين بها"(قوة الإقناع: 174).

ويضيف لنا الجاحظ حاجات أساسيّة في (الإقناعيّ)؛ ليكون مُحاجًّا، مُقارِعًا، خاليًا من عيوب البيان، فهو: "يحتاجُ إلى تميّز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة، وإحكام الصّنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وإنّ ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتنثني به الأعناق وتَزِينُ به المعاني" (1: 36).

2- **الرسالة**: يُقصَد بها المحتوى الاتصالي الذي يُراد الإقناع به، بحيث يستطيع جمهور المخاطبين فهمها، وينبغي فيها بروز الهدف، ومنطقية الترتيب، مُبرهَنة بالأدلة المتناسبة للعبارات والتراكيب اللغوية، لئلا تسبّب إشكالاً وغموضًا، وتَظهَرُ بعيدة عن الجدل واستعداء الآخرين. (قوة الإقناع: 174)

وفي أهميّة الرسالة يُرشِدُنا الجاحظ إلى بلوغ التأثير في المتلقي عبر قناتها قائلا: "أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام؛ فإنّ المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا، وأعاره البليغ مخرجًا سهلاً، ومنحه المتكلم دلاً متعشِّقًا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملا، والمعاني إذا كُسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولّت في العيون

عن مقادير صورها وأزْبت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت وحسب ما زخرفت فصارت المعاني في معنى الجواري، والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوي" (1: 212).

3- **المستقبِل**: "ينبغي فيه مراعاة ما يأتي: الفروق العمريّة والبيئة والاختلافات الثقافيّة والمذهبيّة، المكانة العلميّة والماليّة والاجتماعيّة، مستوى الثقة بالنفس والانفتاح الذهني" (قوة الإقناع: 174).

لقد كان الأدباء العرب والمسلمون على وعي تام بظروف المستقبل، وإمكانيّة تأثيره في العمليّة الإقناعيّة، وإذا ما راجعنا كتب البلاغة نجدها تُلحّ على مستوياته عند إلقاء الخبر؛ فهناك المنكر والشاكّ المتردد، وغضّ الذهن. وبناء عليهم تعتمد خبرة المرسِل وتقنيّته على مخاطبتهم والتأثير فيهم؛ لتصل الرسالة بشكل حيوي وجذاب واقعي مقبولةً منطقيا ووجدانيا. ويُبرِز لنا السكاكيّ ذلك في مقالته: "من المعلوم أنّ حُكم العقل حال إطلاق اللسان: هو أنْ يُفرِغ المتكلم في قالب الإفادة ما يَنطِق تحاشيًا عن وصمة اللاغبة، فإذا اندفع في الكلام مُخبِرًا، لزِم أن يكون قصده في حكمه بالمسند للمسند إليه في خبره ذاك إفادته للمخاطب، متعاطيًا مناطها بقدر الافتقار، فإذا ألقى الجملة الخبريّة إلى خالي الذهن عمّا يُلقى إليه، ليحضر طرفاها عنده، وينتقش في ذهنه استناد أحدهما إلى الآخر ثبوتًا أو انتفاءً، كان ابتدائيا... وإذا ألقاها إلى طالب لها متحيّرا طرفيها عنده دون الاستناد، فهو منه بين بين، لينقذه من ورطة الحيرة، استحسن تقويّة المنقذ بإدخال (اللام) في الجملة أو (إنّ)، و سُمّي الخبرُ طلبيا. وإذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه، ليرّده إلى حكم نفسه، استوجب حكمه ليترجّح تأكيدًا بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده، وكان ضربًا إنكاريًا" (258) و (ينظر، القزويني 1: 69).

و) آليات الإقناع وأساليبه:

تتنوّع أدوات الإقناع لتنوّع مقاماتها الحاليّة للمخاطَب لترسل أثرها البليغ في العقول واستمالة القلوب. ودرج في الأمثال الشعبية: الكلمة الحلوة تُخرج الأفعى من جحرها. فالإغراء،

والإغواء، والاستمالة، والاستدلال، والمحاورة، والمجادلة، والمحاججة، كلها طرق مؤداها الإقناع فالتأثير، ثم الاقتناع.

ومن غرائب الأدوات الإقناعية ما ورد في القرآن الكريم عن آليّة استخدمها إبليس سبيلا للتأثير على سيدنا آدم وحواء بالوسوسة أولا، ثم إتيانه بحجّة عقليّة فلسفيّة تثبيتا لمقولته، في قوله تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾ [الأعراف: 20]، ولم يكتفِ بكلامه هذا عن شجرة الخلود لِمَا وجد من تردّدهما؛ فاستخدم الآليّة الثالثة وهي الحلف والنصيحة، قال تعالى: (**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**) [الأعراف: 21].

فالإقناع يستهدف استمالة العاطفة والعقل بطرق متعددة مباشرة أو غير مباشرة؛ فيتحتّم على المقنِع التخطيط و**الإعداد المسبق** توفيرًا للوقت والجهد، إذا ما تعرّض لعائق ما أثناء الجدل والنقاش، إضافة إلى استعانته بآليات رمزيّة تثير العاطفة في المتلقي، كأن يحمل الشخص في يده عصًا، يلوّح بها أثناء حديثه؛ فتجعل المستقبِل يخافه ويهابه. ومن الآليات الإقناعيّة استخدام **الإشارة الحسيّة**؛ فغمزة العين لها أثرها في نفوس المتلقين: إما رهبة أو رغبة. **ولغة اليد** له ذاك الأثر صعودًا وهبوطا بقدر ما تتضمن الكلمات من الإحساس، وبقدر ما يكون مقطّبا عابسا، يَجول الخوف والجدّ في قلوب المستمعين؛ "**فالإشارة واللفظ** شريكان، ونعْمَ العون هي له، ونِعْم التُّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تُغني عن الخط، وفي الإشارة بالطّرفِ والحاجب، وغير ذلك من الجوارح مِرفَق كبير ومَعونة حاضرة في أمور يسترها بعض النّاس من بعض". (الجاحظ 1: 83)

شِدّة الصّوت وليونته:

كانت العرب –في حد قول الجاحظ- تمدح الجهير الصوت، وتذم الضئيل الصوت؛ لذلك تشادّقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذموا صغره، فقيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال: طول القامة وضخم الهامة، ورحب الشدق وبُعد الصوت (1: 118). الجمهور ينصت للمتكلم

الجَهوريّ، ويملّ ويُعرض عن الصوت الخفي، ويستمع من الجهير، ويقتنع رهبة من صوته ولو بالإكراه، ويتهاون أشدّ التهاون من الصوت الدقيق الضعيف، كما يميل إلى الخطيب المنغّم، الذي يتقن حدود النبر في الكلام. "فالصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف". (السابق 1: 84)

آليّة الحجاج والأدلة البرهانيّة (الإقناع العقلي):

إن هذه الآليّة تتطلب معرفة وخبرة مسبقة، وربما دراسة حثيثة يستوفيها المقنِع قبل الإلقاء؛ لتحقيق الغاية من الحُكم المرتجى تصديقا أو تكذيبا، إنكارًا أو إقرارًا؛ فالإقناع العقلي متمثلا بالحجاج " يأخذ طابع الحوار في الجدل المنطلق من وضعيات ومسائل معينة؛ كما يأخذ في الخطابة كيفيات تقديمها للحجج وترتيبها ومزجها بين الإقناع والاستمالة والتأثير" (قادا: 23). فالخطيب لا يحاور نفسه، وتراه يستخدم الحجة والبرهان؛ لإثبات صدق دليلٍ من عدمه، ويدخلنا في دوائر المنطق اللامتناهيّة حتى يصل بنا إلى جهةٍ يرتجيها.

آليّة اللغة:

يعتمد الإقناعي على البيان ودرجة تلبية احتياجات الطرفين لها، وربطها بالمضمون والمعنى المقصود لكل لفظة منتقاة ومصطفاة بعناية، وقد أبدع الجاحظ في رفد كتابه البيان بالخطب والشعر، مُحصّلا منهما قوّة بيانيّة وبلاغيّة، وظيفتها الرئيسيّة الإمتاع والإقناع، وهو يعتلي عرش المتكلّمة والمعتزلة في زمانه، إلا أنه حاججَ، وناظر، وتكلم "بتصاريف الكلام، ووجوه الاحتجاج مُلمّا باللغة، والنحو، والأخبار، والأديان، والثقافات، إذ عايش فترة خصبة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، نضجت فيها العلوم ونشطت الترجمة وتمازجت الأجناس، وظهرت الزندقة والإلحاد والشعوبيّة؛ فحاربها ببيانه؛ بالحجة الواضحة، والبرهان الساطع يقارع خصومه ويجذب النفوس" (قادا: 35).

من هنا كانت وظيفة المقنع الإمتاع فالإقناع، واللغة هي من تستوعب ذلك كله، وهي التي تنظّم الفكر، وتزيل اللُّبس والغموض، إن اقتضى المقام ذلك. فالبيان عند (قادا)

"صياغة المادة صياغة زخرفيّة مناسبة تنتقي فيها الكلمات ويلجأ إلى المحسنات والإيقاع والتماثل الصوتي" (340) يكون ذلك في قالب بلاغي محكم كما في قول الجاحظ: "وزين ذلك كله، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدّلة واللهجة نقيّة، فإن جامع ذلك السنّ والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تمّ كل التمام، وكمل كل الكمال" (1: 92). فانتقاء الألفاظ له أثره على المتلقي، والتدرج في عرض الفكرة من الأهم إلى المهم، وإيراد الأمثال والقصص القصيرة لإبعاد الملل وأخذ العبرة، لتَعلَق بالأذهان وتترك بصمة في الوجدان. كما لحسن الربط بين النتيجة وسببها، وعرض الضديات والمقابلات؛ مدعاة لاستدعاء النقائض "وسلامة الربط الجمليّ البسيط والضمني" (كمال: 66)، وانتقاء الاقتباسات من مصادر موثوقة؛ كالقرآن والسنة وكلام التابعين وأقوال العلماء والمشاهير، وهو ما يسمى بـ (التناص)، والمراوحة بين الأساليب الإنشائيّة والخبريّة وإسهامات المجاز في هذا السياق كثيرة، "عن طريق استغلال ما في اللغة من غنى وثراء لما فيها من تكثيف وتزيين متعلق بالعناصر الإقناعيّة الثلاثة" (ينظر، عشير: 122)، فالنفس تنجذب إلى الجديّة، والظرافة، والطرافة، والتجديديّة، والحداثة.

ز) بنية الجملة اللغويّة المقنعة:

تتضافر عدة عناصر في تكوين ما يسمى بالجملة اللغويّة المقنعة، تضاف إلى شخصيّة المقنِع ومقوماتها التأثيريّة في الآخرين، أو ما يسمى بـ (الكاريزما)، من الثقة بالنفس، والخبرة المعرفيّة الواسعة، وطلاقة اللسان، وأناقة المظهر، ومعرفة حاجات المخاطبين وقيمهم وأحوالهم، يضاف إلى هذا العنصر عنصر المقام المؤثر، سواء أكان المقام الزمني المحيط بظروف الخطاب أم المقام المكاني، فمثلا قد يغيّر المتكلم خطابه لدخول شخصيّة مرموقة بين الحضور؛ تمهيدًا لاستقطابه وجذبه ليَكون عنصرًا فعالا، ومؤثرًا على الآخرين. وقد يستبدل المتكلم حواره من الغيبيات الكونيّة إلى الواقعيّات الحيّة؛ بواسطة عمليّة استبدال حيّ يكثّفُه المقنِع بعمليات المجاز، والاستعارة، والتشبيه؛ لربط الخفي بالواقعي؛ فيُرشِد المتلقيّ بألفاظه عن الغموض وتعدد الدلالات، وتهديه إلى مسلك الاقتناع.

وبلا ريب أن المؤثرات الصوتيّة التي يبنيها المتحدِث في جُمَلِه المتمثلة بالمحسنات البديعيّة لها الأثر الكبير في استمالة المخاطب وإقناعه، مع قصر الجملة المحكيّة وانتظامها، ورصف معانيها وترتيبها، وخلوها من التعقيد والتقعير؛ فتُلقى على ذهنه كالماء للعطشان؛ لينهل من عذب كلامه ويتأثر بها، كما هو الحال في بلاغة عنصر التكرار باللفظ نفسه أو بالعطف عليه؛ إرادة للمعنى "وتقريره في ذهن المتلقي وإزالة الشك عنه، أضف إلى ذلك أنه ظاهرة أسلوبيّة تؤدي وظيفة موضوعيّة في السياق يعتمد على التماثل الشكلي والمعنوي للدّالّ" (القرعان، في بلاغة الضمير والتكرار 119)، فتطفو على المستوى السطحي للبنية اللغويّة ثم تؤول إلى أعماق هذه البنية؛ من خلال شبكة العلاقات السياقيّة التي تولّد المعاني على مستويات مختلفة (نفسه، 120).

إنّ تعدد التقابليّات والتماثليّات في التركيب اللغويّ وتجمّعها مَثارٌ للدهشة السريعة المباشرة، إذا ما قيست بالمفردة الواحدة؛ فقدرة اللفظة في تجمّعها وجذب أكبر امتداد لفظي ذي دلالة، واتّساقه في شبكة علاقات البنيّة النصيّة؛ لتكوّن في النهاية ذلك الأثر الإقناعي المكثّف في الخطاب.

وصيّة لسان الدين الخطيب:

تراكمات الحياة المعرفيّة، واختبارات الزمان ومصاعبه، وجدل السياسات والخوض في معاركها، وسلب حرّيّات خائضيها ومتفننيها؛ هو ما ألجأ لسان الدين إلى أن يكتب وصيته لأبنائه؛ فالدافع والباعث على كتابتها هم أبناؤه، فنقل العبرة، ووجّه الدروس والعظات والتجارب، وسدّد الرأي، وابتنى السلوك القويم، بأسلوب إرشاديّ ووعظيّ من أب مشفقٍ عليهم، فهو المثل الأعلى لهم، والمُلْهِم في أذهانهم.

*** لسان الدين بن الخطيب:**

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله، ابن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد، السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب، ولد في بلده لوشة، تربّى على علم أبيه وأدبه (المقري، 5: 7)، امتدح السلطان أبا الحجاج يوسف من ملوك بني الأحمر، وتقلّد

وزارتي السيف والقلم، وانفرد بالحل والعقد (المقريّ، 5: 98)، حيكت الدسائس حوله لاحتجاجه على مبايعة سليمان بن داوود، فثارت الفتنة، وزُجَّ بالسجن بتهمتها، وحوكم شر محاكمة، وقتل في سجنه، ثم مُثّل بجسده (المقري، 5: 111).

*** باعث الوصيّة:**

لمّا شعر لسان الدين بن الخطيب بدنوّ أجَله من تآمر القوم عليه، واقتراب حتفه بمنأىً عن أبنائه، توسّل في اللغة أن تكون باعثًا وواعظا ومرشدا بالنيابة عنه، بحمْلِ مشاعره وخبراته وتجاربه إليهم، فما من وسيلة لغويّة تحتكم لملابسات المصدر وظروفه إلا فن الوصيّة.

وقد وضَحَ ذلك فيها جليًّا في قيلته بعد ما حمد الله وأثنى عليه: "فإني لمّا علاني المشيب بقمّته، وقادني الكِبر برمّته، وادّكرت الشباب بعد أمته... وأنا رهينُ فوات وفي برزخ أموات" (صفوت 3: 187)، وبقوله "فقلت أخاطبُ الثلاثة الولد وثمرات الخلد، بعد الضّراعة إلى الله تعالى في توفيقهم وإيضاح طريقهم وجمع تفريقهم، وأن يمُنّ عليّ منهم بحسن الخلق، والتّلافي من قبل التّلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو وليّ ذلك والهادي إلى خير المسالك" (نفسه 3: 188)

*** البناء الخارجي للنص:**

ابتدأ الخطيب وصيته بالحمد والثناء الواسعين لله تعالى في مقدمة طويلة بعض الشيء، اكتنتفها ظلال الموت والجزع من كُرَب الحياة وضيق الحال؛ فتضرّع لله حامدًا إياه، ومتوسّلا بصفات القوة الأزليّة للرب الواحد الذي لا يروعه الحمام المرقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب. واقتاد بعد ذلك ما يسمى بالهدوء النفسي في لفظ (الهدى) تخفيفا لوطء المعنى المحتوم للفظتي (الحِمام والأجل) فقال: "مُلهِم الهدى الذي تطمئن به القلوب، ومُوضّح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة من قسم الوجوب، لاسيّما للولي المحبوب والولد المنسوب" (نفسه 3- 187).

بعد المقدمة عرضٌ أسهب فيه ابن الخطيب بذكر مقومات الصلاح والتقوى والإيمان، عارضا ومدلّلاً بالآيات الكريمة، وبالأحاديث الشريفة، وقصص القرآن، ووصايا لقمان

ويعقوب، وصون شعائر الله كلها، ومخالفة الشيطان في وساوسه وعذله، والقيام بالشرائع، وفضل العلم الذي هو مفتاح العمل في الدنيا، والسعي إلى الآخرة. ثم يعرض ما يشابه موضوعات خطبة حجّة الوداع من العمل بالشريعة، وتأدية الأمانات، وصيانة الدين والأنفس، وإيفاء العهد، وتجنب أكل مال الحرام، والزّنا، والظّلم بأنواعه، والحسد والتنابز، والغيبة، وشهادة الزور؛ كل ذلك بأسلوب أنيق مستمدّ من شعريّة وشاعريّة الخطيب، وأفنان بلاغته ورقيّ لغته وإصابة نبلها.

وكانت خاتمة الوصيّة بردع أبنائه عن طلب الولاية: رغبة واستجلابا، فإن أجبروا عليها إكراها وإيثارا؛ فليعملوا بسعة الصدر فيها، وبذل الخير لها؛ فهي - في رأيه – فتنة ومحنة، وأسر وإحنة (انظر، صفوت، 3: 200). ودعا لأبنائه بالمنفعة والتبصر والتنبيه على ما فات من نصائح والاهتداء بها والرجوع لها، وودع أبناءه بالدعاء لهم بالنجاة من براثن الدنيا، وتذكر الآخرة، وأودعهم سلامة من والد افترّ شمل عائلته وتفرق، وعند الله المآل والمصير.

أرى أنّ هذا شرح وتبسيط، وليس تحليلاً.

وإذا ما أردنا تقسيم الوصيّة إلى **موضوعاتها الرئيسة**:

1. فوحدانيّة الله وعبادته أولاها مستشهدا بأسلوب التناص القرآني الدالّ على كليّة الموضوع، بذكر جزء من الآية لشهرتها في قوله: ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ**﴾(البقرة: 132)، إضافة إلى ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ**﴾(البقرة: 133) (صفوت 3: 187) وهو يستحضر في مكنوناته مضمون الآيتين الكريمتين، وتحلُّق الأبناء حول سيدنا يعقوب عليه السلام لقوله تعالى: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة، 133]، ومن قبله تحلق أبناء سيدنا إبراهيم حوله انصاتا لوصيته، ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة، 132].

وقد كانت دعوة ابن الخطيب أبناءه لعبادة الله، والعمل بتعاليمه، والقيام بشريعته مبثوثة في الوصيّة، لا تخلو منها مقدمة أو خاتمة ولا عرض، بل يكرّرُ عليهم

وصيّة لقمان لابنه - وهو يعظه-، كما هي في القرآن على مسمع أولاده الثلاثة؛ وذلك لتذكيرهم بإعمار الأرض بالعدل والإحسان، لا بالظلم والجور والطغيان.

2. القيام بسنة رسول الله وإقامة دين الإسلام والجهاد له وتحذيرهم بالعدول عنه. فهو عز من قائل: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: 85)، ووصاهم بإعلاء شأنه، وبذل النفوس دونه كما فعل المهتدون، "فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الآبدين، ولا يضرّ مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين" (صفوت 3: 191)، والتقرب لله بفرائض الإسلام وسننه من صلاة وصيام وحج البيت ليلقوا الله لا مبدّلين ولا مغيّرين، ولا يضيعوا حقوق الله فيهلكوا مع الخاسرين (نفسه 3: 194).

3. العمل للآخرة: "فمتاع الحياة الدنيا أخسّ ما ورث الأولاد عن الوالدين" (نفسه 3: 191)، وكأنه يدعو إلى الزهد في مال الدنيا سعيا إلى مآل المتقين، وقدّم متطلبات ذلك وسبله بطلب رضا الله والقناعة باليسير عن الكثير، وإصلاح القلوب، ومخالفة الشيطان، وإقامة العدل في الأرض، ومحاسبة النفس قبل أن يحاسبها الباري يوم القيامة.

4. التحزّم بالعلم النافع: "فهو وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيفة، وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة، وخاصّة الملأ الأعلى، وصفة الله في كتبه التي تتلى، والسبيل في الآخرة إلى السعادة وفي الدنيا إلى النِّحلة عادة، والذخر الذي قليله يشفع، وكثيره ينفع، لا يغلبه الغاضب، ولا يسلبه العدو المُناصِب"(صفوت 3: 194). ويدعو الخطيب إلى أنّ أفضل العلوم وخيرها علوم الشريعة، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه لقول رسول الله: "تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي فعضّوا عليها بالنواجذ"(نفسه3: 191). أرى أن تتجنب الشّرح المطوّل والتّوصيفات المكرورة، وتعمد إلى التّكثيف، والإحالات، والمقاربات الموحية.

5. الدعوة إلى وحدة الصف والتلاحم، والدعوة إلى محاسن الأخلاق: ساق ابن الخطيب في وصيته هذا الموضوع لمّا رأى من تفرقة لملوك الطوائف في عصره، ودعا إلى وحدة بنيه وتكافلهم، ومحاولاته تذكيرهم بالتناصر والتعاضد، وصلة الأرحام ومراعاة حقوق الجوار، وتوحيد صفوف الأخوّة الإسلاميّة؛ فيُرغِموا أعداءهم ويُعلُوا شأن بلادهم بالتخلق

بالخلال الحسنة وتحفظ بها البشريّة أمنها واستقرارها؛ فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والابتعاد عن الرذائل قاصيها ودانيها، وتحرّي الصدق ومكابرة الكذب، فيقول: "عليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين وأهم ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومن أكثر شيء عُرف به، وإياكم والكذب فهو العورة التي لا توارى، والسّوءة التي لا يرتاب في عارها ولا يتمارى، وعليكم بالأمانة؛ فالخيانة لوم، وفي وجه الديانة كُلُوم" (نفسه 3: 196).

6. التحذير من الخوض في السياسة ومقاليدها: لقد جرّت عليه الحياة السياسيّة ويلات ونكبات، قادته إلى نفيه وسجنه ظلمًا وجورا، وقد حذّر أولاده من طلب الولايات؛ فهي ضررٌ بالمروءات والأقدار، داعية إلى الفضيحة والعار، فإنْ أُجْبِرَ عليها إكراها؛ فعليه بالتقوى وسعة الصدر، ومقابلة أذيّة المؤذين بالصبر، وترك معارضة الظالمين، وانتظارهم الفرج من القدير؛ ويُرْدِفُ قائلا: "وأطيعوا أمر من ولاّه الله تعالى من أموركم أمرًا ولا تقربوا من الفتنة جمرًا ولا تداخلوا في الخلاف زيدًا ولا عمرًا" (نفسه 3: 196).

إن مطامع الخائضين في ميدان السياسة لجديرة بالوقوف على دوافعها لِما تحقّق في منظور ابن خلدون السعادة والكسب الذي يقود إلى الجاه والغنى، ويعوِز طالبه ومبتغيه إلى الخضوع لأهل السلطة، والتملّق لأهل الثروة، فيتّسع جاهه وتعلو منزلته، ويتحصّل له الميل السلطاني إلى أن تدبّ رزايا القوم، وتقع المحن (المقدمة 1: 473 وما بعدها)، وقد نال ذو الوزارتين الحظوة الكبرى عند بني المرين من ثناء وامتداحهم إياه وما جرّ عليه هذا الإنعام دنيا عريضة، تفتّقت فيها المواهب، ووضحت من اشتهارها المذاهب(الإحاطة 4: 385) إلى أن تبدلّت الأحوال وعمّت الأهوال في الأندلس ليفرّ منها لائذا إلى فاس، فيكتب للسلطان الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر يستعطفه ويرجو إليه القفول بأرقّ أشعار التوسّل لجبر الحال، ودفع النقم، بعد أن تمزّق شمله، وتفرق عن أهله وماله وولده، وصرفت وجوه المكايد إليه، يقول:

يـا وليّ الإلـه أنـت جـوادٌ	وقصـــدنـا إلى حمـاك المنـيع
راعنا الدّهر بالخطوب فجئنا	**نرتجي من علاك حسن الصّنيع**

فـمـددنـا لـك الأكـفّ نـرجّي عودة العزّ تحت شـمـلٍ جميع

(المقري، 3: 100)

فلا مشاحة أن يُدلّل ابن الخطيب في بعض مؤلفاته أخبار الوزراء الذين لقوا حتفهم جرّاء خوضهم السياسة وأعبائها، أمثال: أحمد بن عباس بن أبي زكريا (الإحاطة 1: 125) وثابت بن محمد الجرجاني وزير باديس بن حبوس (نفسه 1: 253) والوزير علي بن مسعود بن يحيى بن مسعود المحاربيّ (نفسه، 1: 310) وغيرهم كثر ممن لحقتهم فتنة الوزارة واكتووا بنارها، لتعاظم حكام الأندلس بعد فترة ملوك الطوائف وحروبهم مع الممالك المجاورة واستبدادهم بالحكم والرئاسة، وتأجّج نارِ الفتن والنزاعات بينهم.

7. **موضوعات حجة الوداع:** لقد كانت حجّة الوداع جليّة في الوصيّة؛ فلا وصيّة بعدها، لاستئثارها شرائع الإسلام، من عبادة الله وحده والصلاة والصيام وحفظ النفس والمال والولد، والإيفاء بالعهد وأداء الأمانات، والتماس الحلال أينما كان، وإعلاء راية الأخوّة الإسلاميّة بالتقوى، وتجنب الكبائر والصغائر من القتل والسحر والزنا والربا؛ فتجنبها حفظ لمقاصد الشريعة، بالرّغم من أنّ هذه الموضوعات مكرورة ومُعادة لما سبقها إلا ما كان من تحذيراته في طلب الولاية واستجدائها، فما الذي يميّزها ويجعلها نموذجا يُدرَّس كوصيّة في إطار خطابيّ؟ وما الإقناعيات المكثّفة في بنائها الجُمَليّ؟

لقد حفِلت الوصيّة بمرتكزات بناء النفس المسلمة وتهذيبها، وإقامتها على القيم النبيلة والسمو بها نحو العلياء: دنيا وآخرة؛ فهو يطمح ببنيه أن يكونوا مثالا يحتذى، كما أفصحَ عن ذلك في قوله: "واعلموا أنني قطعت في البحث زماني، وجعلت النظر شاني منذ براني الله تعالى وأنشأني، مع نُبلٍ يعترف به الشاني وإدراكٍ يسلّمه العقل الإنساني"(صفوت،3: 191). وجعل وصيته كالتجارة أرسلها لأبنائه وأدارها ليزيدهم ربحا بها؛ "فإن تلقوها اهتدوا بضوء صبحها، واستغشوا من دروعها"(انظر، نفسه 3: 200).

وفي عدد من الآثار، ذكروا أنّ "ابنه (محمدًا) قد انقطع إلى التصوف وعزف عن الدنيا، وكان (علي) شاعرًا، وخُصّه السلطان أحمد بن أبي سالم المريني، وأما (عبد الله) فقد كتب لبعض أمراء المغرب" (جيش التوشيح، المقدمة).

ونرى ابن الخطيب يطالِب في وصيته بإعمال العقل في الفقه، لما يعترض من مستجدات الأمور ومصاعبها، وإذكاء مواهبه بالدُّربة والعلم، وقد وجَّه أبناءه إلى النظر في تجاربه السابقة وخبراته في شتى العلوم، ليستفيدوا وينهلوا من وصيته هذه؛ فهي سجل تاريخي زاخر بالتجارب والخبرات الطافحة وعظا وإرشادا، على شكل أوامر ونواهٍ وتحذيرات متباينة، وترغيبات مقنعة لإثبات الذات (الابن) المثال في أرض الأندلس، والدعوة إلى التجديد والإبداع لله والوطن والذات والأجيال اللاحقة. "فإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو عليه". (النيسابوري، كتاب الوصيّة: 1255)؛ فكيف إذا جمع الإنسان هذه الثلاثة إلى يوم الدين!؟ وكأنّي بلسان الدين يَعِظُ أبناءه ويرشدهم؛ ليتأثروا به كمثال يحتذونه ويتأثرون بأقواله، من خلال جملة إقناعيات عقليّة ونفسيّة أكثر من كونها جمل لغويّة ذات ارتكازات عاطفيّة، تخاطب الذهن والقلب والذات على حد سواء؛ لذا، تناول مجال الاعتقاديّة، فمجال التربية الأخلاقيّة، ثم المجال الاقتصادي وبناء المجتمعات، وأخيرا المجال السياسي. وتجسّد ذلك بطائفة كبيرة من **الأفعال الكلاميّة** التي "تنهض على نظام شكلي ودلالي، فضلا عن أنه نشاط مادي ونحوي، يستهدف أقوالا كلاميّة وأهداف تكلميّة؛ كالطلب والأمر والوعد والوعيد" (بشلاغم: 45)، وما تُحدثه من تأثيرات فاعلة في المتلقي، وخاصة ما كان في "الإنشائيات التي تيسّر التأويل من قبل المتقبِل" (بلانشيه: 57).

توزعت الأوامر في الوصيّة وتعددت إلى مئة وستة وثلاثين أمرًا، جاءت في فعليته الأصيلة أو متصلا بلام الأمر، أما النهي فكان نصيبه فيها أربعين فعلا، واستحوذت نهاية العرض الكثافة العدديّة منه بعكس الأمر الذي أخذ من الأوامر تجذّرها وانتشارها في بداية العرض ووسطه.

من الطبيعي أن تكثر **الأمريات** في الوصيّة، وخاصّة أنها صادرة من الوزير الأب القدوة لأبنائه، وإن كانت في طياتها الدلاليّة (الأمريات) تقدم معنى الإرشاديات والوعظيات أكثر من الإلزاميات؛ لكونهم وصلوا من العمر مبلغ الرجال الأشدّاء العقلاء، فقد جاء بالأوامر على ألسنة الأنبياء إلى أبنائهم، وهم جديرون بالإيمان لا الكفرِ؛ فكانت على سبيل التذكير بالمنهج والرسالة التي جاؤوا بها وأُنزِلوا من شأنها- وهو كذلك –؛ فاستشعر بأنه مسؤول عن أبنائه

كما إبراهيم ويعقوب ولقمان عليهم السلام، وهو وإن جاء بالأوامر؛ فقد زيّنها وغلّفها بإطار من الحنان والشفقة عليهم لقوله: "فاعملوا يا بني، بوصيّة من ناصح جاهد ومُشفِق شفقة والد، واستشعروا حبَّه الذي توافرت دواعيه، وعُوا مراشد هديه، فيا فوز واعيه! وصِلوا السبب بسببه، وآمنوا بكل ما جاء به مجملا أو مفصلا على حسبه" (صفوت 3: 191). نستجلي من هذا التركيب **التّكثيف الإقناعي** الذي استهله لسان الدين بفعل الأمر المقرون بواو الجماعة، الذي عنى به أبناءه دون غيرهم، وجاء بالنداء والمنادى متقدما على متعلق الفعل لأهميتهم وقربهم المعنوي، إقناعا لهم بأن والدهم ما عمِل وأطالَ فيما كتبَ، ووصّى إلا رأفة لحالهم وتطويرا لذاتهم؛ من ناصح بلغت النصيحة به المشقة حتى أخرجها لهم صافية، وأطنب إطناب المشفق المتوّدد والمتعطف، وطلب منهم بالأمر اللين الهيّن أن يستشعروا محبته، وأردفه بفعل آخر وهو: (وعوا)، فنلاحظ التدرّج في دلالات الأفعال من الأضعف إلى الأقوى. فـ (وعوا): أي اتّعظوا، فأحسَّ بثقل تتابع هذه الأفعال في نفس المتلقين، فأردفها بالنداء الترغيبي المحبب لنفوسهم واستمالتهم في قوله: "فيا فوز واعيه!!" وكأننا نسمع نبرته متنغّما محببا لتقريب دلالاتها الإقناعيّة إلى نفوس أبنائه فيتأثروا وينفّذوا ما طلب منهم ووصاهم.

كما استعمل **النهي المتلاحق** دلالة على سرعة تجنب الخطوب إذا وقعت، ويقابلها بحسن التوزيع عليها، في قوله: "ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت ولا تضجوا للأمراض إذا أُعضلت"(نفسه 3: 199). فهي تقابل---> "فكلّ منقرض صغير، وكلّ منقضٍ وإن طال قصير، وانتظروا الفرج" (نفسه 3: 199).

فدلالة النهي في الجملة الأولى بمعنى: الطلب منهم إن يستصغروا مصائب الدنيا إن وقعت بهم.

والثانية: أن يصبروا على الأمراض حتى وإن طالت.

فيقابلها على التوالي جملتان خبريتان ابتدائيتان: جملة: كل منقرض صغير- تقابل - التفسير المنطقي لاستصغار مصائب الدنيا، أما جملة: كل مرض وإن طال قصير، فهي تقابل في نشرها جملة النهي قبلها، ← ولا تضجوا للأمراض إذا أُعضلت؛ وما زاد في تكثيف الدلالة

الإقناعيّة لمضمون هذا الترشيح البلاغي هو (فعل الأمر) الذي جاء بمعنى الرجاء في طلب الفرج من الله تعالى.

إن **الإفرازات التأثيريّة** لمثل هذه الاستدعاءات الأمريّة والنهويّة في الوصيّة تدفع بالمتلقي إلى النتيجة دفعًا، والانصياع لأوامر المقنع، وتجنب نواهيه؛ فينخرط في عمليّة التواصل الفعال، وتوليد الدلالة الإقناعيّة، ويدخل في دائرة الاستسلام والإذعان للسياق الخطابي والخطيب نفسه، وما ارتضاه في دواخله. فالفعلان: اعملوا وقابلوا، مضمونهما: فعل الطاعة منهم، وجملة استوفوا الطهارة والأعضاء نظفوها: تتطلب منهم فعل النظافة واشتراطها ركنا للصلاة، والجمل: تفكروا في آياته ومعانيه، وامتثلوا أوامره ونواهيه، ولا تتأولوه، ولا تغلوا فيه؛ فإنها أفعالٌ كلاميّة تؤكد أفعالا انجازيّة مرماها الامتثال والانصياع رغبة لا رهبة.

ولما جيء بالنهي جاء بالنقيض الاستبدالي له، فلما كان هناك الانصياع رغبة. هنا يكلّفهم بالتناهي عن فعل محبب لهم، وتجنّبه بقدر استطاعتهم، ويوجب منهم الامتناع عنه بطريقة غير مباشرة استجابة لمقررات المقام الذي قبله من الأوامر ومقدمات النظافة والطهارة والعمل بأوامر الله.

وللاستفهام وظيفة بلاغيّة تأثيريّة انفعاليّة تؤدي وظيفة إقناعيّة مؤثرة داخل الوصيّة؛ فتحمل السامع على إبداء ما يضمره القائل في البنية العميقة للجملة، فقوله: "فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عُدم إقناعه ومن غلبت غرائز جهله، فلينظر: هل يحب أن يزني بأهله، والله قد أعدّ للزاني عذابًا وبيلاً، وقال: ﴿**ولا تقربوا الزنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً**﴾(الإسراء: 32) (صفوت3: 197). لقد توسط شعور والنفور والاشمئزاز في هذه العبارة؛ وذلك عائد إلى جملة الاستفهام التي أدت معنى مستفزّ ومستنفر تعافه النفس، وهو وطء المرء أهله، وجاءت أهميّة الحكم المتعلق بالاستفهام كونه خرج بلاغيًا عن معناه الحقيقي؛ فهو لا يريد الإجابة، بل يريد الإنكار لذلك، وإحاطته بجملة الأمر قبله في (فلينظر)؛ ففي هذا الفعل نظرٌ: غوصٌ في الأعماق البشريّة أن يتخيّل الإنسان نفسه مع أهله. ويتصوّر بشاعة المنظر ويكرّهه في نفسه، ويجرّه إلى محارم الله تعالى، وجاءت الجملة التالية للاستفهام عاقبة ذلك الزاني الذي لم يرتدع بتصوراته التي زيّنها له الشيطان، فعاقبته من الله عذابًا

وبيلاً. وجاء بدليل مصدق لا تدليس فيه من آي القرآن على ذلك، مصدّرة بأسلوب آخر هو النهي، وتتعاضد الجملة الأمريّة مع عنقود المعنى الضمني للاستفهام الإنكاري والجملة الاسميّة اللاحقة له بنواةٍ لجملةٍ طلبيّة، اتّحدت تمام التأكيد بـ (قد) لإماطة الشكوك عن صدره، وإزالة اللثام عن ذلك كله شاهدٌ على فاحشة الزنا بالنهي.

***سلطة المقام على النص:**

هو عنصر مهم في التداوليّة، ويشمل مجموع العناصر التواصليّة؛ من مرسل ورسالة ومتلقي وشيفرة لغويّة، فضلا عن المسرح اللغوي أو المقام بأنواعه، "بحيث يتسع ليشمل مجموع الشروط الخارجيّة المحيطة بعمليّة إنتاج الخطاب شفويا كان أم مكتوبا. وكثيرا ما ارتبط (المقام) في البلاغة العربيّة بزيادة شرح وتحديد؛ وذلك بالحديث عن أقدار السامعين ومقتضى أحوالهم، فبمثل هذا التوضيح نرتبط ارتباطا مباشرا بالخطاب الإقناعي، وهو الخطاب المقامي بالمفهوم الضيق والمحدد للمقام" (العمري، 7). وقد يحدث أن تتباين مكوناته وتختلف حسب طبيعة الممارسة الكلاميّة، كأن يضيق المقام حتى يقتصر على مراعاة حال المخاطَب في لحظة محددة معلومة مُسبقا للمرسل، وقد يتسع إلى الإطار الحضاري المشترك بين الناس للوصول إلى المنفعة العامة.

كان تأثير السجن عميقًا على ذات ابن الخطيب، وظهر ذلك جليًا في ألفاظ الموت، والتشاؤم، وانفعالات الخوف والجزع، الذي لَقِيه من حاسديه وسجّانيه، وكأنّه مترقّب به، منتظرٌ إياه لهول ما رأى وتعرّض من ويلات السجن؛ لقوله في مستهل الوصيّة: "الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب، إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ويفجؤه الفراق المعتوب.، وادّكرتُ الشباب بعد أمته، وأسفت لما أضعت، وندمت بعد العظام على ما رضعت، وأنا رهين فوات وفي برزخ أموات"(صفوت3: 187). إذ كان مترقبًا زمن وفاته؛ فهو لا محالة قريب، بناءً على مقدمات اتّهامه بالفتنة التي لا مفرَّ منها ذاك الوقت إلا بالقتل؛ فمطلب التعجيل في كتابة الوصيّة كان مفروغًا منه لامتناع التئام شمله ببنيه، وتصدّع الحال التي آلت إليها الأندلس آنذاك، من تفكك وقلق مهاد، ورغم انعدام حضور الموصي

وجاهيًا أمام متلقيه؛ فقد نابت كلماته وعباراته عنه أيّما إنابة، فحضوره ماثل في كل حرف تنبيه، وكل أمر ونهي واستفهام وتحذير وترهيب وإغراء وترغيب، فتسمعُ ألفاظه: تصرخ حينًا وتهمس حينًا أخرى، وتنادي متلقيها؛ تجرّهم إلى مصيدة الانقياد اللامرئي والتأثير الشعوري والإقناع اللاسلطوي من أب مجرِّب مقتدِر، عركته الحياة ومزّقت رأيه، يلتمس الصلاح وهناء العيش لخَلَفه، متمثّلين ما جاء فيها رغبة لا رهبة، طواعيّة لا كراهيّة.

*** الإقناعيّة في بناء الجمل**

كان توزع الجمل في الوصيّة على النحو الآتي:

الجملة الاسميّة	ابتدائيّة	طلبيّة	إنكاريّة	المجموع
العدد	208	28	4	240

الجمل الفعليّة	ابتدائيّة	طلبيّة	إنكاريّة	الأمر	النهي	المجموع
العدد	343	23	1	136	40	543

كما هو واضح من الجدول السابق نلحظ: فشو الأفعال في الوصيّة بما يوحي من دلالات التغيير والتجدد (القزويني 113:2) والحدوث، وما تحمله من الناحية التركيبيّة، حاملة معها أدوارا دلاليّة تُغشّيها على الجملة الحاوية للفعل، بل تؤثر عليها بمتعلقاتها ومعانيها الدلاليّة.

نأخذ الفعل (شاخ) مثلا في جملة: "كأنّي بشبابكم قد شاخ"(صفوت 3: 188). فهو يحمل إسقاطات الفعل الموحيّة بالهرم والكبر في معناها الدلالي، وبخاصة عند التقائه بنظيره (بشبابكم) ضمن عمليّة ضديّة رائعة، تجلب بتأكيد الفعل بـ (قد) التحقيقيّة التي لا شكّ ولا مِراء فيها، فترشّحت العمليّة الدلاليّة بالمعنى الأصيل للفعل، وتكثّفت بديعيًا بطباق الإيجاب من ضدين دلالين (الشباب والشيخوخة)، وما حملته من مكنونات العمليّة الاستعاريّة الموحيّة بإسقاطات الزمن المُثقّل على أكتاف ابن الخطيب من هموم، وكان هذا الفعل نواة خبريّة لجملة اسميّة جرّدته إلى المعنى الخبري الإنكاري؛ فهو يستبعد أن يكون شبابهم كذلك؛

لكونه لا يعرف المدة التي استغرقها في السجن، لكنّه يؤكد بناءً على معطيات شعوريّة ونفسيّة، بأنها طويلة. أما الفعل (تعقبها) في جملة و"الأولى تعقبها الآخرة"(نفسه 3: 189)؛ فحملت الدلالة معنًى جديدًا له غير العمل والعامل، وتعدّته إلى إضافةِ معنى المعمولِ في كلمةِ (الأولى) وعائدها المتصل بالفعل على المسند إليه المتقدم؛ لضرورة الأوليّة في الحدوث.

إن لتعالق الأفعال "ولتلقّنوا تلقينا وتعلموا علما يقينا" (نفسه3: 189)، "وندمت بعد الفطام على ما رضعت"(نفسه3: 188) مهمات ذات وظائف تركيبيّة ملّحة ومبتغاة في الجملة، فمتعلق الأول بالمصدر المطلق لدلالة "التقييد وتربية الإفادة" (القزويني 114:2)، وكذا الأمر في (وتعلموا)؛ إذ هو معطوف على ما قبله لكن بتقييده بمطلقه الموصوف لتخصيص الإفادة أكثر، لكن الأمر يختلف في الجملة الثالثة، فمتعلق (ندمت) تأخر لدلالة يتطلبها المقام، فترتيبها الأصيل هو: وندمْت على ما رضعت بعد الفطام، ولو كانت على هذه الشاكلة، لكأنّه تمنى أنّه لم يولد البتة، لأنّ الرضاعة حقيقيّة من أمه، لكنها في البنية السطحيّة بعد التأخر توحي بدلالات عميقة في البينة العميقة؛ فالرضاعة فيها تخييليّة، لكن الفِطام المتقدّم مع الظرف (بعد) حقيقي، والتقدم هنا لغاية إزالة اللبس عن ذهن السامع، وحمله إلى التفكير في مضمون المؤخر، لكن ما هي الرضاعة التي رضعها لسان الدين بعد فطامه عن أمه؟! فكأنه يقابل بين شيئين متقابلين في البنية العميقة:

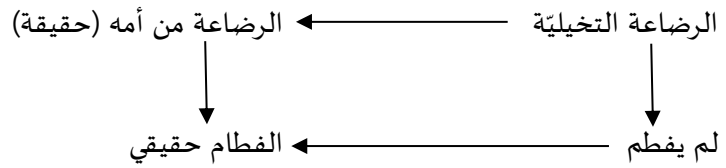

لقد وقع الندم بعد الفطام الحقيقي: أي بعد سن الطفولة؛ وكأنه استعار مدلول الخوض في السياسة وأشبهها بحليب الأم لمن يستلذه؛ فيدمن عليه، وكذلك هو، فقد سطع نجمه متلألئا في سماء الشعر والنثر، وبلغ في "المديح مبلغا جعل أعناق الأمراء تتطاول إليه، وعكف على مدح السلطان أبي الحجاج سابع ملوك بني الأحمر؛ فذاعت في الدولة مدائحه وولّاه رئاسة الكتابة وبيانه وثنّاها بالوزارة، ولقّبه بها، وقرّبه السلطان إليه حتى توفي، ووُلّي

وزارة أخرى في عهد ابنه محمد إلى أن حقد عليه الحاسدون، وفقد أكبر رجل قادر على حمايته بموت عبد العزيز ملك تلمسان وظفر به خصومه" (اللمحة البدرية: 5).

فلو قال بالأصل لاختلّت الدلالة التأثيريّة، وكان المراد منها ما جاء في البنية السطحيّة من إرادة الدلالة الإقناعيّة بترك السياسة لأهلها؛ ففيها من الندم ما رأيتم من جرّ صاحبنا إلى حتفه. وما أجمل ما كثّف به ترشيح الدلالة الإقناعيّة بعلاقة الضديّة بين الفطام والرضاعة؛ فجامع الرضاعة الندم على ما آلت إليه أحواله وما أضاعه من وقت في غمار الدولة وسياستها.

ومن آليات الإقناع الفعليّة التي كثّفها المُوصي ما اكتنزه من دلالات تأثيريّة في زيادات الأفعال، وخاصة، ما كان مضعّف العين فيها؛ فللأفعال المزيدة دلالاتٌ واضحةٌ على المعاني: "فقوة اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام، وذلك لأنها واسطة لهما، ومكتوفة بهما فصارا كأنهما سياج لهما، ولما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلا على قوة المعنى المحدث وهو تكرير الفعل" (ابن جني2: 102). فدلالات الأفعال: تبرّأت، وأخلفت، وتتكفّل، وتوضّح، وتضمّن، واستبدل، وتروّع، وتيعّظ، وتفترش، وتهرول، وترتاد، وتستلموا، وتُصعّر؛ تختلف تماما عن مجرداتها الوضعيّة؛ فكل زيادة معنى منوط باللفظ، فاستعمال الفعل تبرّأوا: يختلف عن برىء، وفُضّلوا عن أفضِلوا، واستدعوا عن ادعوا، وبلّغتُ عن بلغتُ، وهكذا.

أما الجمل الاسميّة، وإن لاحظنا أنّ الفعليّة تفوقها بضعف كثافتها العدديّة، إلا أنها مناسبة لسياق الوصيّة؛ "لما تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء ليس غير، من غير النظر إلى حدوث أو استمرار (عتيق: 48)؛ فجملة "والزكاة أختها الحبيبة، ولدّتها القريبة" (صفوت 3: 193)، والجمل: "مفتاح السعادة بالعرض الزائل، وشكران المسؤول على الضدّ من درجة السائل، وحق الله تعالى في مال من أغناه لمن أجهده في المعاش وعنّاه"(نفسه 3: 193). اقتضى المقام التاريخي أن تكون الجملة المحتوية على "ركن الإسلام الثالث" اسميّة، ليس لأنها ثابتة فقط، بل لأنها حُكمٌ لا نقاش فيه؛ لأنه من المسلّمات الإسلاميّة والثبوت الاعتقادي بأصل الوضع، فهي أخت الصلاة مذ جاء الإسلام، ونرى الخطاب خاليا من المؤكدات لمعرفة المتلقي

الضمنيّة بها، فما من شكٍّ ولا إنكار لها، بل هي استذكار وإرشاد وتذكير، فلعلّ فيها الإفادة والإشادة.

وإذا ما كشفنا عن العلاقات الداخليّة بين المفردات التي يتألف منها التركيب لوجدنا من الاتساق التركيبي في المعنى مع قواعد التركيب، "فالنظام التركيبي ذو فاعليّة في خلق المعنى المتعدد، وهو جزء أساسي من حيويّة اللغة، " فانتظام الكلمات ونوع الترابط والانفصال بين العبارات، والتفاوت الملحوظ بين صيغ الكلمات في العبارة يكشف إمكانيات غير قليلة" (عكاشة: 125). فدلالة التركيب الاسمي تأتي من ارتباطات نسقيّة بين ألفاظه، من خلال روابط لفظيّة ومعنويّة "تكون صالحة عند نظمها في بيان المقصود منها، وعوامل الترابط في البنية السطحيّة للنص: العطف، الوصل والفصل والترقيم وأسماء الإشارة والموصولة والاستئناف وأبنيّة الحال والزمان والمكان" (الهواوشة: 68).

ولا ننسى الربط بالإحالة إلى الضمير، ودوره في الجمل السابقة؛ لضمان عدم التكرار غير المستحب، وربط الجمل ببعضها عبر رابط متسلسل؛ فضمير الغيبة في (أختها) أحال إلى لفظ الصلاة بالمحصلة، أمّا (لدّتها) فاشترك الضميران في اتساق معنى المساواة بين الزكاة والصلاة، وقدّم اللفظ معنى التوكيد لمعنى الاشتراكيّة القريبة بينهما. وما كان من ارتباط الجملة الأولى بالثانية بأداة العطف (الواو) من المشاركة، وتتابع المسلّمات المتشكلة في نقطة التقاء إيقاعيّة قصيرة الألفاظ، متناغمة الأصوات المسجوعة. وقد اجتمع الموصول مع الضمير والصفة والعطف في بنية اسميّة واحدة في قوله: "والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصِّل، وشرط لمشروط محصّل، فاستوفوها، والأعضاء نظّفوها"(صفوت3: 193)؛ فما كان غرض ابن الخطيب إلا ليُقنِع أبناءه بأهميّة الطهارة، واستوجب تركيبا ليعظّم من شأنها ويحثّ عليها؛ فجاء بالموصول الاسمي، وخاطبهم على ألا يتجاهلوها. وكثّف مراده بضمير الفصل بعده، المُشار إليها "هي"؛ لتأكيد أهميتها واختصاص عظمتها، على أنها مدخل للصلاة التي بها عماد الدين، وأعقبها بعنصر ثالث: الضمير المتصل في المتعلق (في تحصيلها) تأكيدا منه على عمق الفعليّة فيها العائدة إليها. وكذلك رابط العطف في الجملة التالية؛ فعمّق أهميّة الطهارة والإحالة إليها في الإنشاء الطلبي المتمثل؛ بالأمر في جملة (استوفوها).

ولنا أن نشاهد **التّكثيف الإقناعي** في أسلوب الحصر، وورود ضمير الغيبة في جملتي: "فإنما هي دُجّنةٌ ينسخها الصباح، وصفقة يتعاقبها الخسار أو الرّباح"(نفسه3: 192)، ونرى تأثير الجملة الفعليّة في كلا الجملتين من تحقيق مقصديّة المتكلم من نفوريّة العرض الزائل في الحياة الدنيا؛ بإسنادها إلى الفاعل "الصباح" والإحالة الضميريّة المتصلة بالفعل إلى "دجنّة"؛ فقد ربطت الجملة الوصفيّة بعائد في نواتها على الخبر قبلها، مع ما تحمله من جماليات ودلالات الصورة البيانيّة فيها، التي توثّق الصورة اللونيّة في البعد الإدراكي للمتلقي، وما يحمله فعل النسخ من قلب موازين الصورة والدلالة الواقعيّة، إضافة إلى علاقة التقابل والتضاد بين الصباح والدّجنّة، وبين الخسار والرّباح؛ فيتحقق الإقناع من خلال هذه التّكثيفات البلاغيّة المتحصّلة من عمليّة الإسناد في بنية الجملة، والروابط المعنويّة واللفظيّة، إضافة إلى تحقق الصورة الاستعاريّة، وعلاقة الضديّة البديعيّة داخل تركيب جملي واحد، تطفو جميعها على البنية الأفقيّة، وتُصعِّد من الدلالة التأثيريّة والإقناعيّة لدى القارئ والمتلقي على حد سواء.

وقد يتعمق ذلك من خلال آليّة التأكيد الإخباري الطلبي؛ وكان نصيبها واحدا وخمسين خبرًا طلبيا، موزعًا بين الفعليّة والاسميّة إلا أن الإنكاريّ منها لم يستأثر إلا بخمس جمل فقط من إجمالي الأخبار، وقد كانت في معرض الاستشهادات القرآنيّة والنبويّة، مثل: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: 13)(صفوت 3: 190)، ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان: 19)(صفوت 3: 190)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 102)(صفوت 3: 190).

أما الطلبي ففيه مراعاة لقصديّة المقام التواصلي المتمثل بالمتلقي، وحالاته الشعوريّة وخبراته، وكيف يُطوّع المتكلم تلك المقامات القصديّة بذكائه وفطنته في البناء العميق ليصل به إلى السطح على حسب مراده ومقصده الإقناعي، والمتوافقة مع مستويات المتلقي والجوّ العامّ الذي يكتنف نص الخطاب؛ فالمؤكِّد الواحد يرسّخ نسبة المسند إلى المسند إليه، وهي ما يشكك فيه المتلقون ويترددون، في جملة : "ثمّ إنّ الله تعالى قبضه إذ كان بشرا" (نفسه3:

190)؛ فمقصديّة المتكلم نابعة من مقام حالهم، فلما توقّع أنهم مترددون في قبول الخبر وتصديقه جاء بالمؤكد، تأكيدا لمضمون الجملة على مسامعهم ونسبتها لمطابقتها لواقع البشريّة؛ فما من أحدٍ مخلّد فيها. وفي توكيده هذا يشعرهم بتذكّر غيبياتٍ عقليّة عنهم محتَّمةٍ، كانت منسيّةً أو غائبةً عن أذهانهم، وهم في غفلةٍ ساهون خائضون.

*** الإقناع بالأدلة:**

ويعبر عنها بالشاهد أيضا، وهي تشكيلات لغويّة جاهزة تستمد قوتها من موردها؛ بها تقام الحجّة على من يخالف، وإذعان الخصم لوجهة نظر محدّدة، وتأكيد حضورها في الذهن، ويتوسل بها مريدها إيقاظ الأذهان واللعب بشعورهم وأحاسيسهم؛ ليصل بهم في أدنى فترة زمنيّة للغاية الإقناعيّة ومقصديّة الخطاب. (انظر، عشير: 96)

الدليل القرآني:

حظيت الآيات القرآنية بمنزلة رفيعة في وصية ابن الخطيب، بها برهن على قدسيّتها، والعمل بمقتضاها، استذكارا واسترشادا، وأن خوفه عليهم كخوف النبي إبراهيم، ولقمان الحكيم (انظر، صفوت 3: 190)، واستدلّ بالتناص القرآني؛ فأطلق جزءا من الآية وأراد المضمون من كليتها، في قوله: "وادّكرتُ الشبابَ بعد أمّته" (نفسه3: 188) منسجمة مع قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾(يوسف: 45)، ثم جاء بإقرار الدين على المصطفى وأهميّة الاعتقاد والعمل به؛ "فكلاهما مقرّر ومستمدّ من عقل أو نقل محرر، والعقل متقدّم، وبناؤه مع رفض أخيه متهدم، فالله واحد أحد، فردٌ صمد، ليس له والد ولا ولد، تنزّه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، والذي لا يسأل عن شيء وهم يسألون، الحي العليم المدبّر القدير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أرسل الرسول رحمة ليدعو الناس إلى النجاة من الشقاء" (صفوت 3: 190)، كل هذه تراكيب موحيّة بشدة تعلق المتكلم بألفاظ القرآن، والقوة الإقناعيّة التي تكتنف مضموناتها عند استدلاله بها واستشهاده أو تناصه لها.

الدليل النبويّ:

كان الاستشهاد بكامل حديث النبي الكريم: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلُّوا بعدي كتاب الله وسنتي، فَعَضُّوا عليهما بالنواجذ" (نفسه 3: 191)، في حُجيّةٍ على العمل بدين الله وسنة نبيه، وكذلك حديث "الظلم ظلمات يوم القيامة" (نفسه 3: 199)، في تحذيره الظلم ومجانبته، إلا أنه قد تخلّل التّناص النبويّ وصيّته، وصارت في محضر كلامه حجّة قويّة تستجلي مهمتها الوعظيّة والتأثيريّة من ذاكرة متلقيه، وربطهم كلام والدهم بما هو منصوص عليه في السنة. وقد أجال الذكر والذهن وقادنا بقوله: "اللهم، قد بلّغت، فأنت خير الشاهدين" (نفسه 3: 191) بمقولة سيدنا محمد -عليه الصلاة والسلام- في حجة الوداع: اللهم هل بلغت اللهم فأشهد، بخلاف الصورة اللغويّة والدلاليّة بينهما؛ ففي الأولى وصلت مقصديتها إلى المخاطب، وإقرارها بالتّحقّق والجملة الاسميّة فيها.

الاستدلال المَثَليّ:

لم يرد في الوصيّة إلا مثلٌ يتيمٌ هو: (بيدي لا بيد عمرو) (صفوت 3: 189)، اختزل الدلالات العميقة في مقولته حتى صار مثلا، وما ابتغى فيه ابن الخطيب إلا الاتعاظ والأخذ بأسباب القوة والحزم في شؤون هذه الوصيّة، فإنْ لم يمتلكها حاملُها عليه أنْ يفعل ما فعلته صاحبة المثل (الزباء) بإفساد حياتها وما تملكه بيدها، فهلكتْ هي ومملكتها. وكأنه يريد من أولاده أن يعملوا بالوصيّة ويتناولوها بالعمل الجادّ، كيلا يقعوا مثلما وقعت فيه صاحبة المثل، ويجرّون على أنفسهم ويلات الندم لعدم أخذهم بها، ويسوق المثل حكمة وعبرة في الأنفة والعزة التي لا يتحصلها المرء إلا بوصايا ونصائح لسان الدين بن الخطيب.

إن لسان الدين خطيب ذكيّ فطن؛ إذ يُدرك أن تقديم الحجج في هذه الأدلة على مقياس وضعها النصي، وفيما ارتضاه من قصديّة لهوَ جدير بالتأثير وسرعة التناول، وإن تباينت الأدلة في مستوياتها الإقناعيّة فقدسيّة القرآن أعلى من السنة، وهذان مجتمعان أعلى بكثير من المثل السائر، ومع ذلك؛ فالأخير يحمل في طياته من الدلالات التأثيريّة والإقناعيّة ما يجعله عنصرا متضاما ألمعيّا في إيضاح المعنى الخفيّ، "وتقريب المعقول من

المحســوس وقياس النظير على النظير" (دهان: 355) لما فيه من الوعظ والاعتبار والزجر، ولاختزاله الدلالات السابقة في مضربه ومنطقه.

- **الأقيسة المنطقيّة الإقناعيّة:**

قدّم لسان الدين بن الخطيب في الوصيّة حججا دامغة، وبراهين مفنّدة من محور خبرته الحياتيّة والسياسيّة على نحو خاص، لتكون مقدمات منطقيّة تقود السياق الذهني للمتلقي وتستدرجه إلى عمليّة الربط المنطقيّة بين حقيقتين: الأولى اختيار ابن الخطيب السياسة مسرحا لحياته، والثانيّة مصيره بسببها، وما آل إليه في النهاية من الوقوع في براثنها؛ فقوله: "وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلابا، واستظهارا على الخطوب وغلابا، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داعٍ إلى الفضيحة والعار، وممّ امتحن بها منكم اختيارا، أو أجبر عليه إكراها وإيثارا، فليتلّقَ وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة، وهي بين إخطاء سعادة وإخلال بعبادة" (صفوت3: 200)، في هذه المقولة رسالة وعبرة لأبنائه، ولكل عامل مشتغل يبتغي السياسة مهنةً؛ فهي اختبار لا اختيار؛ فيحذرهم من طلبها واستجلابها ثم يفنّد رأيه من خبرته الحكيمة فيها، ويقودنا إلى نتيجة الخبير بها: أنها ضررٌ بالمروءات والأقدار، جالبة الفضائح والعار. وإذا وقعت على الفرد دونما اختيار فليعدّ العدّة لها؛ فإنها ليست لعبة، ببذل الخير وسعة الصدر، ويقود لنا النتيجة النهائيّة لكل هذه المقدمات وخلاصة السياسة: إنها فتنة ومحنة وأسر وإحنة.

كان خطيبنا واضحا في تناول عباراته، جاذبا الاهتمام إليها بالسبب والنتيجة، وحسن المقدمات المنطقيّة الاستدلاليّة المتحققة من واقع المصدر والمتلقي، وهو قاصد في عرض الأدلة المنطقيّة عن طريق القضايا الشرطيّة التي توزعت على رقعة البنية السطحيّة في تسعة وثلاثين موضعا، أجالها في متنها لبثّ الطاقة الإقناعيّة الكامنة في التعليلات الشرطيّة وانقسمت إلى بسيطة ومركبة؛ فالبسيطة ما كانت فيه الجمل الشرطيّة قصيرة، فِعْلُها نقيضُ جوابِها، وهذا الأخير نتيجة تعليليّة للأول، في قوله: "فإذا أسديتم معروفا فلا تذكروه، وإذا

برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمرا فاحقروه"(نفسه 3: 199). والمركب منها في قوله: "هذه- أسعدكم الله- وصيتي التي أصدرتها وتجارتي التي لربحكم أدرتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصّلتم على سعادة الدنيا والآخرة" (نفسه 3: 200).

لقد كانت غايته التّكثيف الإقناعي في كليهما؛ فالأولى بإيجاز الجمل الشرطيّة وتتابعها واحتوائها على المطابقة الضديّة من الجواب الشرطي وفعليته، محذرا المتلقي من ويلات النتائج المترتبة على المقدمات الأولى بسرعة تناولها وتجنّبها، أمّا الثانية فبضرورة التقّيد بما جاء في الوصيّة وفضائلها، التي تعود عليهم بالخير الوفير، مستعملا أدوات الربط الضمني واللفظي، من الإحالات الضميريّة، والإشاريّة، والموصوليّة، والعطف المشاركي، لتتابع محصلات العواقب.

- **آليات الإقناع البلاغيّة**
- **التكرار:**

يعدّ التكرار ظاهرة متفشيّة في الخطابات التواصليّة لما له من وظائف عدة أولها "وظيفة الربط القائمة على الجمع بين الكلامين، والثانية فهي الوظيفة التداوليّة المعبّر عنها بالخطاب، أي لفت أسماع المتلقين إلى أن لهذا الكلام أهميّة لا ينبغي إغفالها" (الهواوشة: 123)، ويتمثل بتكرار اللفظة المعجميّة بوصفها عنصرًا من عناصر الاتساق المعجمي، وصولا إلى الدلالة المرجوّة المتمثلة بالإقناع أو بمرادفها، "وبالمجاورة والترديد ورد العجز على الصدر وتشابه الأطراف والعكس والتبديل" عند القرعان (في بلاغة الضمير والتكرار: 118).

وتكمن أهميّة الأثر الذي يولّده أسلوب التكرار عند فهمي مصطفى، أنّه "متى كثر تكرار أمر، تولّد تيار فكري وعاطفي يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات هو العدوى، إذ لا يكفي لتحوّل الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة، ولكن لابد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه" (101)؛ فالتكرار هو السبيل الوحيد لربط الانفعال به وتركزه حوله. إن تكرار الفعل قد يكون نتيجة انفعاليّة لتكرار الكلام، بل محفزّا إياه في عدة مواقف تتطلب ذلك، يقول

القرعان في التكرار: "هو ظاهرة لغويّة تطفو على المستوى السطحي للبنيّة اللغويّة، ثم تؤول إلى أعماق هذه البنية من خلال شبكة العلاقات السياقيّة التي تولّد المعاني على مستويات مختلفة، بحيث تصبح ظاهرة متميّزة في أعماق البنية اللغويّة للسياق" الخطابي (في بلاغة الضمير والتكرار، 120). فجاء أسلوب التكرار متمثلا في وصيّة ابن الخطيب على عدة مستويات متباينة:

تكرار توكيدي لكلمة (الله) في سياقات متنوعة:

1. الله الله في الصلاة ذريعة التجلّة. (صفوت 3: 192)
2. الله الله أن تُعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو الكلام. (نفسه 3: 196)
3. الله الله لا تنسوا مقارضة سجْلي، وبرّوا أهل مودتي من أجلي. (نفسه 3: 199)
4. الله الله لا تنسوا الفضل بينكم، ولا تذهبوا بذهابه زَيْنكم. (نفسه 3: 199)

وساقها بأسلوب التحذير من الله عند الإقدام على القتل في الجملة الأولى وضرورة طلب تقواه. وفي الثانية، بالترغيب في الصلاة وفضائلها، وفي الأخيرتين محذرا إياهم من نسيان فضله ومعروفه عليهم، وفضل رابطة القوة الأخويّة.

وفي جانب آخر، يكرّر اللفظ بمصدره تأكيدا لحدثه، بقوله: "ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة" (نفسه 3: 199)، و"ولا تذهبوا بذهابه زيْنكم" (نفسه 3: 199) أو تكرارا لصفة الشيء؛ لبيان أهميته، في قوله: "فقلت أخاطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد"(نفسه 3: 188)، فكانت العبارة الأخيرة تأكيدا ضمنيا وانفعاليا، متشكلةً في البنية العميقة للمتكلم، تكثّفت على البنية السطحيّة بتكرار مضمون الجملة الأولى عن طريق الاستعارة البلاغيّة؛ فأولاده ثمرات قلبه ونفسه. وفي قوله "فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد" (نفسه 3: 190)؛ كلها أمثلة تكراريّة جيء بها لتأكيد صفة الوحدانيّة والصمديّة لله تعالى.

وتحقّقت المجاورة في قوله: "خالق الخلق وما يعلمون"(نفسه 3: 190)، والمجاورة الضديّة في قوله "بيديّ لا بيد عمرو"(نفسه 3: 189)؛ فتكرار كلمة (بيد) ومجاورتها قدّمت معنى التأكيد الضديّ، بسبب النفي الحاصل بـ (لا) واختلاف المضاف إليه؛ فتحصّلَ تأكيدُ أمرِ الاتعاظِ لمعمول اليدِ ومجاورتها لنقيضِها.

أما الترديد ورد العجز حاصل في: "وإياكم والظلم، فالظالم ممقوت بكل لسان مجاهر الله تعالى بصريح العصيان، والظلم ظلمات يوم القيامة، واطرحوا الحسد، فما ساد حسود، وإياكم والبخل؛ فما رُئي البخيل وهو مودود"(نفسه3: 198)، وكذلك: "واعلموا أنّ الخلق عيالُ الله، وأحبّ الخلق إليه المحتاط لعياله" (نفسه3: 198).

هذه البنى التكراريّة المتشكّلة أكسبتْ نسقا لغويا من خلال الترابط المكرور للأصل الواحد على تشكلات لفظيّة موحيّة: فالظلم جاء على الصيغة الحدثيّة، والثانية على الفاعليّة، والثالثة دالّة على تعدُّد الحدثيّة في مجموعات، والحسد على صيغة المصدر الحدثيّ الثابت، وفاعلها المتكرر والمداوم على الحسد بصيغة فعول، والبخل قائم على فاعله بصفة ثابتة ملازمة للحدثيّة (البخيل)؛ لتعميق المعنى التأثيريّ لتكراريات الأحداث السلبيّة وفاعليها في نفس المتلقي، بخلاف كلمتي الخلق وعيال؛ فكلاهما بمعنى مخلوق ومعول- أي اسم مفعول – وكانتا متساويتين في الحدث للمُحدِث والمُحدَث له، لأن القيمة الحاصلة من تكرارهما كانت إيجابيّة، بخلاف تعدد الصيغ المنسوبة بفاعليها.

ويمكن أن يكون تشابه الأطراف ضمن شكل "العكس والتبديل" في قول لسان الدين: "وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت" (نفسه3: 192)، أو بعكس مضمون الجمل بأدوات كالنفي، مثلا: "وقابلوا بالصبر أذيّة المؤذين ولا تعارضوا مقالات الظالمين" (نفسه3: 198)؛ فـ"قابلوا" شكلٌ عكسيّ واستبداليّ للفعل "لا تعارضوا"، والظالمين شكل استبداليّ للمؤذين، وفي هذا النسق دور عند القرعان في "إعادة الدالّ ومعناه المعجميّ مع اختلاف الدلالة التي تأتي بها بنية العكس والتبديل" (في بلاغة الضمير والتكرار: 126).

ومن مظاهر التكرار هو إثباته لقيمة الثنائيات في الوصيّة، وهي ظاهرة متكررة من مقدمة الوصيّة إلى خاتمتها، إذ يركز فيها على سِمَة الوضوح - إن صحّ لنا التعبير– فلا ثالث لهما، إما مؤمن وإما لا، إما إن تُطِعْ فتَستفِدْ، وإمّا إن تُعْرِضْ فترْدَى، أمثال: خلَف- سلَف، شبابكم – شاخ، ناشطكم – كسل، الصّاب (المرّ) – العسل، الأمس – غدًا، الأولى – الآخرة، بناء – مهدوم، النجاة – الشقاء، رضا – سخط، الأوامر – النواهي، الغدوّ – الأصيل.

- **أسلوب التفصيل بعد الإجمال:**

استغلّ لسان الدين هذا الأسلوب لتوضيح فكرته وبيانها، وتأكيد المعنى فيه مرتين عن طريق التكرار الضمني؛ فمرة كان المعنى مُجمَلاً عامًّا، وأخرى مُخصصًا مُفصّلاً، فقوله: "احذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر، وتفسد السر والجهر، والرّشا؛ فإنها تحطّ الأقدار، وتستدعي المذلة والصغار" (صفوت 3: 198)؛ فقد حذّر من إدلاء شهادة الزور، ثم جاء بتفصيل أضرارها بعد أن كانت مبهمة غير مقيّدة، وقدّم ضررين لها، وكذلك كانت الرّشا.

وقدّم تفصيل منافع علوم الشريعة بعد الإجمال، وكذا في أصول الفقه، فقال في الأخيرة: "ثم الشروع في أصول الفقه؛ فهو العلم العظيم المِنّة، المهدي كنوز الكتاب والسنّة" (نفسه 3: 195)، وقال في ذمّ العلوم القديمة: "وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا، ورأيا ركيكا، ولا يُثمِر في العاجلة إلا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار وسمة الصَّغار، وخمول الأقدار، والخَسف من بعد الإبدار" (نفسه 3: 195).

ويُسهب ويطنب في تفصيل شرور وأضرار المحذورات؛ فيكثر من الجمل التحذيريّة في سياق العلوم القديمة (أي الفلسفة والمنطق)، محاولاً طرق العقل وإقناعه بسلبياتها ومساوئها التي تثير في النفس شعور الندم بعد حدوث الواقعة، فاستبَقَ الزمنَ وحذّرهم من عواقب خوضها وتعلّمها، واجتناب أسفها وحسرتها.

- **المجاز الإقناعي:**

نادرة هي شواهد التشبيه التي توسّل بها لسان الدين في وصيته، وإن بدَتْ في "تناص قرآني" ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى: 11) (نفسه 3: 190)، فقد اعتمد إلى ما هو أبلغ في إيصال التأثير، وتعميق الإقناع وإعمال التفكير ألا وهو المجاز، فهو يخاطب صفوة من العقول النيرة: الثلاثة الولد، العاملين والمهتدين بنوره وخبرته ومعرفته، لهذا كان المجاز متناسبا ومُراعيا لأحوال المتلقّين النفسيّة والذهنيّة، ومستقيما مع مقام المتكلم، فهو ذاك الشاعر البليغ الخطيب المفوّه ذو الوزارتين والبلاغة، وعلوم اللغة بحرُهُ، وهو غواصها.

وقد كان للاستعارة النصيب الأوفى من المجاز، وظهرت في أقواله:" وقادني الكِبر برمّته" (نفسه 3: 187)، "والذي بأنواره تهتدي الضُّلال، وبرضاه ترفع الأغلال، وتبرّأت من يمينها الشمال" (نفسه3: 188)، "فبالأمس كنتم فراخ حجر، والقبور فاغرة" (نفسه3: 189)، فالصورة الاستعاريّة كما يراها القرعان تعتمد على قرينة المشابهة بين طرفي الاستعارة "فهي تحاول أن تكثّف المشهد الصوري من خلال مداخلتها بين طرفين بطريقة استبداليّة أو النقل والادّعاء، بحيث يحل طرف محل آخر، في الوقت الذي يحمل الطرف الحالّ صفات الطرف المحذوف، محتفظا بقابليته للسماح بالتقاطها وإدراكها، فتكون البنيّة قد رَسَمتِ المشهد الصوريّ بلغةٍ مكثفةٍ تكاد تتخطى سطحيّة التشابه والتماثل إلى حدّ التوحّدِ والاندماج بين الطرفين" (الصورة وتماسك النص:139).

ويعبّر الخطيب عن سيطرة هاجس تقدّم السّن عليه، إذ نقله من عالم البشريّة إلى عالم الحيوانيّة؛ فاستعمل لفظ (الكبر) الذي هو فترة زمنيّة من عمر الإنسان تنطوي على الحاجة والذّلّ والهوان، فأسبغ عليها دلالات التأثير اليأسي، وكثّف معنى الذلّ أكثر في التركيب (برمّته)؛ ليستثمر في هذه الصورة الاستعاريّة تبادلَ أدوارٍ ونقلَ مُلكياتٍ؛ فملكيّة الخطيب صارت تحت سيادة الكبر، إذ نقل صفة الإنسانيّة المخصوصة به إلى الكِبر، باستدعاء اللفظ (قادني) مقرونا بالمتعلق برمّته، فعمّقت هذه الصورة الدلالات النفسيّة التي أراد أن ينقلها إلى المتلقين لتداعيات التأثير والإشفاق على حالته؛ فيما وقع من ذُلّ وهوان، بعدما كان في عزّ وسلطان. ولكم أن تُدرِكوا دلالات الصورة الاستعاريّة التي جلبها خطيبنا؛ لينقل لنا الصورة التي يشعر بها، وهو بعيد عن أولاده، في مثل هذه السّن وهذا المقام الذليل عينه.

ونجد الصورة جليّة أيضًا في المجاز الفعلي في جملة "يفترش التراب جنبي" (صفوت3: 189)؛ إذ أراد استدعاء الدالّ الأقوى في نفسه ألا وهو الموت، باعتبار ما يجول حوله من معطيات ذلك متنبئًا به عن قرب، وأكدّ على ذلك في جملة "والقبور فاغرة" (نفسه 3: 189)، بتكثيف صُوَريّ بديع لدلالات الفناء، والإحساس بالموت المحدّق، واختفاء الحياة في لحظة من اللحظات، لكن هذه الدلالات تتحوّل إلى إشراقات أمل، يستجلبها عند حديثه عن الإيمان وطاعة الرحمن والاهتداء بنوره، فينقل دلالات الموت المحدّق به إلى أمل الحياة التي

يرجوها في أولاده: يمتثلون لتعاليم ربهم في حياتهم رجاءً ونجاةً ورصيدًا للآخرة؛ ففي قوله: "فإنما هي دُجنّة ينسخها الصباح"(نفسه3: 192)، في حديثه عن عرض الدنيا الزائل، استعار الظلمة والعتمة لها؛ لأنها تقود صاحبها إلى مصيرٍ مُبهَمٍ مجهولٍ، كما الليل يسير فيه صاحبه على غير هدى، فإذا جاء الصباح غيّر حال هذه الظلمة إلى البلج والفرج، في صورة لونيّة وشعوريّة متخيلة ومحسوسة تتعمق في وجدان من يعيها.

فالدجنة مقابلها الصباح مثل الدنيا تقابلها الآخرة

والليل يقابله الصباح مثل اللون الأسود يقابله الأبيض

مع إشراقة الشمس

الظلام مقابل الهداية

في ثنائيات ضديّة رائعة: الدين مقابل الدنيا، والحياة مقابل الآخرة، وعمّق هذه الدلالة بعبارة تالية لها: "ودونكم عقيدة الإيمان فشدّوا بالنواجذ عليها"، أي فأحكموا العمل به وبتعاليمه، كيلا ينفلت منكم وأنتم لا هون عنه، بعرض الدنيا الزائل، وأحكموا عليه الوثاق بالصبر على الطاعات وترك المكاره.

لقد كان الاستعمال المجازيّ محكمًا بديعًا في الصور الاستعاريّة، ومساندا قويا في تماسك بنيان النص، وتكثيف الدلالات الإقناعيّة التي ابتغاها ابن الخطيب؛ فتارةً يُدخلنا في شعور اليأس، وينقل لنا إحساسه بالذل والهوان، وأخرى، يرسل لنا الأمل المعقود بالله إن اعتصمنا بتعاليمه، في تناقض حادّ بين الثنائيّات الضديّة، التي استدعاها لتعميق الدلالة التأثيريّة في المتلقين، ونقل إحساسه إليهم؛ لتوثيق الصلة الاعتقاديّة بالله والاستسلام له، في حركة تجلّت بالغوص في أعماق البنية العميقة للتراكيب في مثيرات حركيّة ولونيّة وحسّية متعددة.

- **الإقناعات البديعيّة:**

لعلّ أكثر ما يميّز أسلوب لسان الدين بن الخطيب في هذا الخطاب هو المؤثرات الصوتيّة الناتجة من تآلف أصوات الحروف في الكلمة، تعقبه انتظام الكلمات في جمل على نحو دقيق؛ لتقرع ذلك الجرس الموسيقي الرنّان من بداية النص إلى نهايته؛ فتخيّر الكلمات وترتيب الحروف والجمل هو استجابة لما يدور في خَلَد المتكلم من تفاعلات في البنية العميقة من الأشكال البلاغيّة المتنوعة التي تظهر على السطح التركيبي، فائدتها إمداد النص تلك القوة الاتصاليّة في نقل الآراء والأفكار والانفعالات للآخرين بما يتناسب مع سياقاتهم ومقاماتهم المتنوعة.

ويذكر الجاحظ أن "الصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف" (1: 84)، ويذكر أن العرب كانت تمتدح "جهير الصوت متشادق الكلام" (1: 117). ويقول أيضًا "من أراغ معنى كريمًا؛ فليلتمس له لفظًا كريمًا، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا وفخمًا سهلاً ويكون هناك ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا" (1: 129).

فلا يخفى علينا ما لأثر التنغيم والنبر على المعنى، خصوصا إن اجتمع مع المحسنات البديعيّة التي وظفها ابن الخطيب في وصيته توظيفًا بلاغيًا إقناعيًا، مستبدلاً بالشواهد الشعريّة في وصيّة المنظومَ اللفظي والإيقاع الموسيقي، في هندسة صوتيّة بديعة تهزّ النفس، وتستميل السامع، وتحرّك شجونه ووجدانه في كثافة بديعيّة رائعة. "فهي طريقة يلجأ إليها المتكلم باستدعاء الآذان بألفاظه، كما يستدعي القلوب والعقول بمعانيه، وهو مهارة في نظم الكلمات وبراعة في ترتيبها وتنسيقها" (أنيس: 43).

وأبرز لون بديعي ملموس في الوصيّة هو **اللزوميات** "وهو أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع" (القزويني 115:6). والوصيّة غارقة بلزوميات ابن الخطيب، وغايته في ذلك إنصات المتلقين للجرس الموسيقي المتناغم أثناء

ترديد الأصوات نهاية كل فاصلة؛ إمتاعًا من الملل والضجر لطول الوصيّة، وجذبًا لموضوعاتها وتأثيرًا في مشاعرهم.

فنلتمس ذلك في: "واعلموا أن الإنسان في فسحة ممتدة، وسبل الله تعالى غير منسدّة، والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر" (صفوت 3: 197). وحفل صوتا الواو والباء اللذان ترددا – لزوميًا- في مقدمة الوصيّة (انظر مقدمة الوصيّة 3: 187) بنصيب الأسد، مكررين متتابعين ثماني عشرة مرة، وأغلب الظنّ أنّ بغيته من الواو- وهو صوت مديّ هوائيّ- مرونة الكلمة صوتيًا، وفسحتها الموسيقيّة التي يقيّدها صوت شديدٌ انفجاريّ، هو الباء؛ ليوحي دلاليًا أنّ سعة العيش التي كان فيها قد توقفت، وقُيّدت بغلّ الأسر الذي يُتوقَّع منه خاتمةٌ، فيها الأمل بالله مطلوب، فهو علام الغيوب، ويستر العيوب، ويغفر لعباده الذنوب، فابن الخطيب يلعب صوتيًا وموسيقيًا في أذن السامع، لينبّهه إلى تنقّل وتبدّل حاله، والنظر إلى مقام الإنسان الذي لا يستقرّ على حال.

الجناس:

يُضفي الجناس على الجملة والنص نوعًا من الحلاوة والطلاوة، مؤداه ذاك التجانس الموسيقي للفظة بوصفه تكرارا مؤكّدا للوقع النغمي سواء أكان تامًا أم ناقصًا، "ولا شك أن مثل هذا الأسلوب في نظم الكلام يتطلب المهارة والبراعة، وقد لا يقدر عليه إلا الأديب الذي وهب حاسة مرهفة في تذوق الموسيقى اللفظيّة" (أنيس: 43)، وأكثر لسان الدين من الجناس الناقص بل وأشبع خطابه به، مثل:

1- هذه عُمُد الإسلام وفروضه، ونقود مهره وعروضه؛ فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يُناويكم ظاهرين، تلقوا الله لا مبدّلين ولا مغيّرين. (صفوت 3: 194)

2- والعقل متقدم، وبناؤه مع رفض أخيه متهدم. (نفسه 3: 190)

3- والنميمة فساد وشتات، لا يبقى عليه قتات، وفي الحديث: "لا يدخل الجنة قتّات". (نفسه 3: 198)

4- وما سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور، وممقوت مهجور. (نفسه 3: 196)

5- ولتُلقِّنوا تلقينًا وتعلموا علمًا يقينًا. (نفسه 3: 189)

نلحظ الجمل القصيرة التي تحوي المتجانسات فتحدث ميلاً غريزيًا إلى العبارات أو الجمل القصيرة المتناغمة صوتيًا، وخاصة، ما تلاقت فواصلها بالصوت نفسه، أو بالكلمة إياها باختلاف بسيط لا يعيق النغم إلا فهمًا لتمييز المعنى، ففي الجملة الأولى تكرّر الجذر (عمل) تثبيتًا لرد العجز على الصدر، وتقويّة للحدث بتكراره، وكان الوقع الموسيقي في (فروضه وعروضه) أما (متقدم ومتهدم) فقد كانا متجانسين موسيقيًا وبينهما شبه بالتضاد؛ فتقدم الجيل والأمة يقابل هدم آمالها وروحها، وفي الجملة نفسها طباق تام؛ فالبناء يخالف الهدم، وكلاهما يؤديان معنى قارّ في فلسفة الحياة؛ فمتى اجتمع الدين والفعل أُعمرت الحياة، ومتى تخالفا تهدمت، وقد أظهر جماليات هذا المعنى بتزيينه موسيقيًا وتأثيرًا انفعاليًا بتوطيد علاقة الأخوّة بينهما، في صورة استعاريّة بديعة زادت جمالاً وبهاءً بمهارة المتكلم البديعيّة.

كما جيّش الجناس في المجموعة الثالثة والرابعة؛ فترديد أصوات: شتات، مُتات، قتّات؛ فيه تدرّج صوتيّ من الأخف حتى الأثقل؛ فكانت الأولى خفيفة لعلوّ الفتح في وزن فَعال ثم تثقيله ضمًا فأصبحت فُعال، ثم الأثقل بتضعيف العين في فعّال.

والمجموعة الرابعة كانت قصيرة العبارات، وكلها على وزن مفعول "محجور، مسجور، مهجور، ومتقاربة الأصول، جحر، سجر، هجر .. فالأول المنع والثاني الحرق والثالث: الترك. ونعود إلى التدرج مرة أخرى فأنت تحجر على شيء لتمنع انتقال عدواه إلى غيره، فإن لم يُجدِ الحجر أُحرق، ثم يُترك لغياب الأثر العارض فيه.

أما المجموعة الخامسة فكانت الكثافة التجنيسيّة في خمس كلمات مع الجناس الاشتقاقي في (تلقنوا تلقينًا) و(تعلموا علمًا)، والجناس الناقص في كلمتي تلقينًا ويقينًا، ليعوّل المتكلم على الصوت الموسيقي وتكراره، لتأكيده في النفوس، وصولاً إلى التأثير والإقناع بصيرورة الموت تلقينًا وعلمًا يقينًا، ومراده حتميّة الموت المحدّق به بإلحاح صوتي مزمن.

إلى جانب التجنيس، كان التصدير ماثلاً عند انعدام الفاصلة في الجمل الطويلة؛ ليفرض التجانس الموسيقي إذا تغيّب عنها، ولإعادة أذن السامع إلى سلسلة التأثير إن شرد

تفكير المتلقي، وتململ وتضجّر، باحثًا في أغوار نفسه ذلك الانصياع النفسي والذهني بكل جوارحه وجوانحه، وتمثل في:

1- وأوسعوا بالرجاء الجوانحِ – واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى، فطوبى لعبد إليه جانح. (نفسه 3: 199)

2- واحذروا القواطع عن السعادة، كما تُحذَر السموم. (نفسه 3: 198)

3- وأطيعوا أمر من ولاّه الله تعالى من أموركم أمرًا. (نفسه 3: 196)

أما ما يخص المحسنات المعنويّة:

فكان الطباق ماثلاً وواضحا في الثنائيات، - كما أشرت سابقًا في (بند التكرار)-، وقد ساقها لتقويّة المعنى المتعانق بين اللفظتين وهو الضّـديّة؛ فتجمّع لفظين متقابلين معنى في الجملة (القزويني 7-6) يستحيل التقاؤهما حقيقة في كيان واحد كالموت والحياة، القوة والضعف، الحرام والحلال، مؤمن، كافر. ففي دلالة المطابقة تأكيدٌ لأهميّة الأضـداد في توليد الأثر الفني والنفسـي من اسـتحضـار المعاني الغائبة وتمكينها في العقل بذكر مضـادها سـلبًا أو إيجابًا.

إن لموسـيقى الألفاظ ذلك التأثير في المتلقي، وتهيئ ذهنه لقضـيّة المتكلم، وتسـتقطب نفسـه ولا يكون ذلك في الخطاب النثري إلا باسـتغلال البديعيات كآلة تأثيريّة وجماليّة، توظف لأداء المعنى على كيفيات ودرجات متعددة بحسب المقام والمقال.

توصلت الباحثة الى عدة نتائج بعد دراستها التكوثرات الإقناعيّة والدلالات التأثيريّة في وصيّة لسان الدين بن الخطيب، وتمخضت عن النتائج الآتيّة:

1. برع لسان الدين بن الخطيب في استعمال اللغة بوصفها أداةٌ مؤثّرة ومُقْنِعة في المستمع والقارئ.
2. كشفت مقصديّة المرسل في الوصيّة عن إقناع المتلقين والتأثير فيهم لتغيير نهج حياتهم وتحذيرهم مما هو آت.

3. انتهج المرسِل عدة آليّات للتكثيف الإقناعيّ تمثلت في الأدلة الدينيّة والشواهد الواقعيّة والتّناص والمنطقيات والبلاغيات.
4. كان لسلطة المقام التداولي الأثر العظيم في توليد الدلالات الإقناعيّة والتأثيريّة.
5. أبدع ابن الخطيب في تذليل البناء التركيبي، والمحتوى القضوي لتعميق فعل الإنجاز فالإقناع ثم التأثير في نفوس المتلقين.
6. السلاح الذي حارب به ابن الخطيب في خطابه النصي هو الآليات البلاغيّة من مؤثرات صوتيّة، ودلالات معنويّة، ومجازات تأثيريّة بليغة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أنيس، إبراهيم. **موسيقى الشعر**. ط2. د.م.: مكتبة الأنجلو المصريّة، 1952.

بشلاغم، عبد الرحمن. **تجليات مفاهيم التداوليّة في التراث العربي**. رسالة ماجستير. جامعة أبي بكر بلقايد، 2014.

بلانشيه، فيليب. **التداوليّة من أوستن إلى غوفمان**. ترجمة صابر الحباشنة، سوريا: دار الحوار للنشر، 2007.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**. ط2 بيروت: دار الهلال، 1992.

جبر، فريد، وآخرون. **موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب**. د.م.: مكتبة لبنان، 1996.

ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**. تحقيق عبد الحكيم بن محمد. د.م.: المكتبة التوفيقيّة، د.ت.

ابن الخطيب، لسان الدين. **الإحاطة في أخبار غرناطة**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ.

ابن الخطيب، لسان الدين. **جيش التوشيح**. تحقيق وتقديم: هلال ناجي. تونس: مطبعة المنار، د.ت.

ابن الخطيب، لسان الدين. **اللمحة البدريّة في الدولة النصريّة**. تصحيح محب الدين الخطيب، القاهرة: المطبعة السلفيّة، 1347هـ.

ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**. تحقيق: حامد أحمد الطاهر. القاهرة: دار الفجر، 2004.

دهان، عبد القادر محمد. **وسائل الإقناع في القرآن الكريم**. عمان: دار الفتح للدراسات والنشر، 2017م.

الزمخشري، محمود بن عمر. **أساس البلاغة**. تحقيق محمد باسل عيون السود. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.

السـكاكي، يُوسـف بن أبي بكر. **مفتاح العلوم**. تحقيق عبد الحميد الهنداوي. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2000م.

صـفوت، أحمد زكي. **جمهرة خطب العرب، العصـر العباسـي الأول**. مج3. بيروت: المكتبة العلميّة، 1934.

طه، فرج عبد القادر. وآخرون. **معجم علم النفس والتحليل النفسـي**. بيروت: دار النهضـة العربيّة، د.ت.

عتيق، عبد العزيز. **علم المعاني**. بيروت: دار النهضة، د.ت.

عشير، عبد السلام. **عندما نتواصل نغيّر**. المغرب: أفريقيا الشرق، 2006.

عكاشـة، محمود. **التحليل اللغوي في ضـوء علم الدلالة**. مصـر: دار النشـر للجامعات، 2005.

العمري، محمد. "المقام الخطابي والمقام الشـعري في الدرس البلاغي"، **دراسـات سـيميائيّة أدبيّة ولسانيّة** ع.5 (1991): 7-24.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد. **معجم مقاييس اللغة**. تحقيق عبد السلام هارون. د.م.: دار الفكر، 1979.

فهمي، مصطفى. **مجالات علم النفس**. القاهرة: مكتبة مصر للطباعة، د.ت.

قادا، عبد العالي. **بلاغة الإقناع**. عمان: دار كنوز المعرفة، 2016.

القرعان، فايز. **الصورة وتماسك النصّ**. إربد: عالم الكتب الحديث، 2019.

القرعان، فايز. **في بلاغة الضمير والتكرار**. إربد: عالم الكتب الحديث، 2010.

القزويني، محمد بن عبد الرحمن. **الإيضـاح في علوم البلاغة**. شـرح محمد عبد المنعم خفاجي. ط3. بيروت: دار الجيل، 1993.

قنديل، فؤاد. **فن كتابة القصة**. د.م.: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2002.

قوة الإقناع. مجموعة من الخبراء. ترجمة هبة الله صـبري سـلمان. مصـر: مكتبة النافذة، 2008.

كمال، إيهاب. **قوة التأثير**. القاهرة: دار الحرم للتراث، 2011.

مصطفى، إبراهيم، وآخرون. **المعجم الوسيط**، ط2، د.م.: مجمع اللغة العربيّة، 1972.

المقري، شـهاب الدين أحمد بن محمد. **نفح الطيب من غصـن الأندلس الرطيب**. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1997.

ابن منظور. **لسان العرب**. بيروت: دار الفكر، د.ت.

النيسـابوري، الإمام مسـلم بن الحجاج. **صـحيح مسـلم**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1991.

الهواوشـة، محمود سـليمان. **أثر عناصـر الاتسـاق في تماسـك النصّ**. عمان: عماد الدين للنشر والتوزيع، 2009.